نوبل للآداب
1972

هاينريش بُل

وكان مساء ...

ترجمة وتقديم
سمير جريس

مكتبة
Telegram Network

وكان مساء...

[«مكتبة ♔ النخبة»]

هاينريش بُل

ترجمها عن الألمانية: سمير جريس

وكان مساء... - مختارات قصصية

تأليف: هاينريش بُل Heinrich Böll

ترجمها عن الألمانية: سمير جريس

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

ISBN: 978 - 9933 - 641 - 87 - 0

الطبعة الأولى: 2023

© 1994, Verlag Kiepenheuer & Witsch GmbH & Co. KG,

Cologne/Germany

جميع حقوق الترجمة محفوظة للناشرين دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع ودار سرد للنشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله،

على أي نحو أو بأي طريقة دون موافقة الناشرَين الخطية.

طبعة عربية ثانية مزوّدة بمقدّمة جديدة.

صدرت الطبعة الأولى عن دار المدى، دمشق 2004.

تعتمد هذه الترجمة، لبعض القصص المختارة للأديب الألماني هاينريش بُل، على طبعة الأعمال الكاملة للكاتب التي صدرت عام 1987 عن دارَيْ نشر:

.Lamuv Verlag, Bornheim-Merten, und Kiepenheuer & Witsch, Köln 1987

على سبيل التقديم

هاينريش بُل والسؤال المؤرّق: لماذا حدث ما حدث؟

هل للأدب عمرٌ افتراضيّ؟ وبعد كَم من الأعوام تفقد الأعمال الأدبيّة قيمتها، أو على الأقلّ بريقها؟ أم أنّ الأعمال الجيّدة لا تفقد قيمتها أبداً؟

هذه الأسئلة طرحتها الأوساط الأدبية قبل سنوات قليلة، خلال الاحتفال بمرور مئة عام على مولد الروائيّ والقاصّ الألماني هاينريش بُل (1917–1985)، الذي حصل عام 1972 على جائزة نوبل للآداب. آنذاك كرّمته لجنة نوبل تقديراً «لإبداعاته التي جدّدت الأدب الألماني وأثْرته». لكن، كيف يبدو هذا الإثراء بعد مرور نحو خمسين عاماً على منحه هذا الوسام الأدبي؟

كان بُل، بالفعل، واحداً من أبرز ممثّلي التيار الأدبيّ الجديد بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. ضمَّ هذا الجيل كُتّاباً مثل بُل وغراس وإنتسنسبرغر، ومعظمهم قضى الحرب العالمية الثانية بالزيّ العسكريّ، وكان همّهم بعد الحرب هو التعبير عن خبرة الحرب وفترة النازية والطغيان، كما كانوا يطمحون إلى تخليص اللغة الألمانية من رطانة هتلر وأعوانه. كانت بداية بُل مع القصة القصيرة التي كتبها متأثّراً بأسلوب الأميركيّ هيمنغواي، والألماني فولفغانغ بورشرت الذي قضى نحبه في ريعان شبابه بسبب مرضه أثناء تأدية الخدمة العسكرية. في قصصه المبكّرة كان بُل يعبّر عن الحرب العالمية الثانية بعيون المجنّد الذي يكره الحرب، ليس لأنه بطلٌ مقاوم، بل لأنه ببساطة شابّ في مقتبل العمر يريد أن يحيا ويتزوّج ويربّي أطفاله، غير أنه يرى كلّ شيء في حياته قد بات مؤجّلاً. عبثيّة الحرب وضعف الجنود في ساحة القتال وعجز الإنسان البسيط عن فعل شيء، ثم الأنقاض التي

خلّفتها الحرب في البيوت والنفوس - كل هذه موضوعات تناولتها قصص تلك الفترة، مثل «عند الجسر» (1949)، أو «موت إلزه باسكولايت» (1953)، أو «أيّها الجوّال، إذا وصلت أسبـ...» (1950)، وهي قصص تمنح قارئها، رغم أجوائها الكئيبة، بصيصاً من الأمل. أطلق النقّاد على أدب ما بعد الحرب في ألمانيا تسمية «أدب الأنقاض»، وهي تسمية تنطبق تماماً على قصص هاينريش بُل التي سبق ذكرها، أو رواياته في خمسينيات القرن الماضي، مثل «أين كنت يا آدم» و«لم ينطق بكلمة واحدة». بهذه الأعمال تحوّل بُل إلى لسان حال البسطاء والخاسرين والجنود العائدين من الجبهة بعد الحرب.

في سنوات الستينيات انشغل بُل بتصوير أحوال المجتمع في فترة ما سُمِّي بـ«المعجزة الاقتصادية»، منتقداً التحوّلات التي شهدها المجتمع الاستهلاكي الجديد الذي كان يقدّس المال من ناحية، ويقوم من ناحية أخرى بعملية إزاحة وكبت جماعي لفترة النازية والحرب، ونجد أثر ذلك في ثلاثٍ من قصص هذه المجموعة، وهي: «الشغل شغل» (1950)، و«كما يحدث في الروايات السيّئة» (1956)، و«حكاية عن هبوط أخلاقيّات العمل» (1963). وجّه بُل، وهو الكاثوليكيّ المتديّن، أيضاً نقداً حادّاً وعنيفاً إلى الكنيسة باعتبارها مؤسّسة وسلطة تُماشي النظام السياسي. في تلك الفترة كتب بُل واحدة من أشهر رواياته، وهي «آراء مهرّج»، التي تحوّلت إلى فيلم سينمائي ناجح، وعالج فيها موضوعاً من موضوعاته الملحاحة، وهو رفض الاندماج في المجتمع واختيار الحياة على الهامش بكامل الوعي. هذه هي الخبرة التي خرج بها الكاتب من فترة الجنديّة في الجيش النازي، والتي جعلته يحاول التهرّب من الخدمة العسكريّة بكلّ السبل، ومنها مثلاً تزوير تصاريح الإجازة.

في مطلع السبعينيات كتب بُل رواية «صورة جماعيّة مع سيّدة» التي أشادت بها لجنة نوبل. وما كاد يتسلّم جائزة نوبل في ستوكهولم عام 1972 حتى وجد نفسه يخوض في ألمانيا صراعاً قاسياً مع الصحف اليمينية متمثّلة في صحيفة «بيلد» الشعبية، إذ دافع، أو بالأحرى حاول أن يتفهّم دوافع مجموعة «بادر ماينهوف» التي قامت بأعمال إرهابية ضد رموز الدولة، فوُجِّهت له الاتهامات بأنه «متعاطف مع الإرهاب». ما تعرّض له بُل من صحافة الإثارة في زمن الإرهاب اليساري كان هو الموضوع الذي تناوله في روايته الشهيرة «شرف

كاتارينا بلوم الضائع - أو: كيف ينشأ العنف وإلى أين يؤدّي»، التي حوّلها المخرج فولكر شلوندورف (مخرج «الطبل الصفيح») إلى فيلم ناجح.

كانت أعمال بُل تلقى إذاً صدى كبيراً فور صدورها، وتثير النقاشات والجدال. وفي أعقاب فوزه بجائزة نوبل تُرجم عددٌ كبير من أعماله إلى أهمّ لغات العالم، ومن بينها العربيّة. وبات بإمكان القارئ العربيّ أن يطالع قصصه القصيرة وعدداً من رواياته. ولكن، ماذا يتبقّى من أدب بُل الآن؟ لقد كان صاحب «آراء مهرّج» لسنوات طويلة من أكثر الكتّاب الألمان نجاحاً، باعت أعماله ما يزيد عن 16 مليون نسخة في المنطقة الألمانية وحدها، وفي الستينيات والسبعينيات كانت نصوصه مقرّرة دوماً على تلاميذ المدارس، فهي تعكس بصدق التطوّر السياسي والاجتماعي في ألمانيا بعد الحرب. لكن أعماله تبدو اليوم، لا سيّما رواياته، وقد تقادمت وفقدت الكثير من ألقها، ويبدو أدب بُل متوارياً خلف مواقفه الأخلاقية والسياسية الشجاعة.

ما يتبقّى من أدب بُل هي قصصه القصيرة التي اخترنا نماذج منها في هذه المجموعة. كان بُل يعتبر فنّ القصة القصيرة «أحبّ الأشكال الأدبية» إلى نفسه، وربما يكون قد هجر ذلك الفن لشعبيّة الرواية. غير أنه لم يكن روائياً، هكذا يُجمع معظم النقّاد الألمان. وتُعتبر قصصه الساخرة من أجمل ما كتب، مثل قصة «سيحدث شيء» (1956) في هذه المجموعة، التي تُعتبر مثالاً رائعاً على فنّ القص الساخر الفاضح لعيوب المجتمع، فنّ ينخز ويجرح دون أن يُدمي، مثيراً ابتسامة لا تغادر وجه القارئ.

لم يكن بُل مُجدِّداً في الشكل الأدبي، ولا صاحب أسلوب ناصع. إنجازه كان في البساطة وفي مضمون أعماله التي عبّرت عمّا يعتمل في نفوس ملايين، أو كما قال كارل راغنر غيروف في كلمة الاحتفال بمنحه جائزة نوبل: «إن تجديد الأدب الألماني لم يحدث عبر التجريب الشكلي، فالذي يواجه الغرق لا يمارس السباحة التوقيعية».

هذه المجموعة تضمّ قصصاً لم تسبق ترجمة أغلبها إلى العربية، وهي تبيّن التطوّر الذي شهدته قصص بُل مضموناً وأسلوباً، ولملاحظة هذا التطوّر رتّبنا المجموعة ترتيباً زمنيّاً

حسب النشر الأول، فكانت القصة الافتتاحية هي «ساقي الغالية» (1948)، والقصة الختامية هي «حكاية عن هبوط أخلاقيات العمل» (1963)، وبينهما قصص سنوات الخمسينيات.

تطمح هذه المختارات إلى تقديم بعض أعمال أديب ناقد لا يقدّم في أعماله تبريراً لكارثة النازية، ولا وصفاً لأعمال بطولية خارقة في مقاومة النظام، أو تمجيداً لعظمة شعبه؛ كاتب يحكي ببساطه ما عايشه، محاولاً إيجاد ردّ على السؤال: لماذا حدث ما حدث؟

سمير جريس

برلين، آذار (مارس) 2020

ساقي الغالية

ها قد منحوني الآن فرصة. كتبوا لي بطاقة، يجب عليّ أن أذهب بها إلى المصلحة. وها أنا ذا قد ذهبت إلى المصلحة، وكانوا في غاية اللطف. أخذوا منّي البطاقة وهمهموا. هممهت أيضاً. وسألني الموظّف:

- أيّ ساق؟

- اليمنى.

- بالكامل؟

- بالكامل.

همهم مرّةً أخرى. ثم فحص أوراقاً عديدة، وسمح لي بالجلوس.

أخيراً، وجد الرجل ورقةً بدَت أنها هي التي يبحث عنها، وقال:

- أعتقد أنني وجدت شيئاً يناسبك.. شيئاً لطيفاً.. تستطيع أن تمارسه وأنت جالس: ماسح أحذية في أحد المراحيض بميدان «الربوبليك»، ما رأيك؟

- لا أستطيع مسح الأحذية، لقد كنت دائماً ألفت النظر بسبب سوء تنظيفي للحذاء.

ردّ قائلاً: «يمكنك التعلّم. الإنسان يستطيع أن يتعلّم كلّ شيء. الألماني يستطيع كلّ شيء. بإمكانك، إذا كنت تريد، أن تتلقّى دروساً مجانيّة في ذلك».

فجاوبته بهمهمة.

- هل اتفقنا؟

أجبته قائلاً: «لا.. لا أريد. أريد أن أحصل على معاشٍ أكبر».

أجابني بكلّ لطفٍ ورقّة: «أنت مجنون!».

- لست مجنوناً. لا يستطيع أحدٌ أن يعوّضني عن ساقي.. بيع السجائر لم يعد مسموحاً لي، وها أنتم تضعون العقبات في طريقي.

اتّكأ الرجل بظهره إلى المقعد، وأخذ نفَساً عميقاً، وانطلق يقول:

- يا صديقي العزيز.. ساقك غالية غلاءً فاحشاً. أنت في التاسعة والعشرين من عمرك، سليم القلب ومعافى البدن تماماً، فيما عدا الساق. وستعيش حتى تبلغ السبعين. أرجوك أن تحسب: في الشهر سبعون ماركاً.. اثنتا عشرة مرة في العام.. أي واحد وأربعون في اثنتي عشرة في سبعين. احسب من فضلك -دون الفوائد- ولا تعتقد أن ساقك هي الساق الوحيدة. ولست أيضاً الوحيد الذي قد يُعمِّر. ثم تطلب زيادة المعاش، فلتسامحني.. أنت مجنون!

فقلت له وقد اتكأت بظهري مثله، وأخذت نفساً عميقاً:

- يا سيّدي، أعتقد أنك تبالغ في التقليل من شأن ساقي. ساقي أغلى من ذلك بكثير.. إنها ساقٌ غالية غلاءً لا يُقدَّر. لست سليم القلب فقط، ولكنّي للأسف سليم العقل أيضاً.. أنصِت إليّ!

- وقتي محدود للغاية.

فنهرته قائلاً:

- أنصِت! لقد أنقذَت ساقي حياة جمعٍ غفير يتقاضون الآن معاشاً طيّباً. كان ما حدث آنذاك كالآتي: كنت أرقد وحيداً تماماً في مكانٍ ما على جبهة القتال، وكان عليّ أن أنتبه لقدوم الأعداء حتى يستطيع الآخرون الفرار في الوقت المناسب. كان اللواء الخلفيّ قد تهيّأ، ولم يشأ الفرار قبل الموعد المناسب، ولكن أيضاً ليس بعده. في البدء كنّا اثنين.. ولكنّهم قتلوه.. لم يعد يكلّف شيئاً. صحيح أنه كان متزوّجاً، ولكن زوجته تتمتّع بالصحة وتستطيع أن تعمل، فلست بحاجة للخوف عليها. أي إنه كان رخيصاً رخص التراب. لم يمضِ عليه في الجندية سوى أربعة أسابيع.. ولم يكلّف أكثر من بطاقة بريدية وبعضاً من الخبز. كان جنديّاً شجاعاً عرف على الأقل كيف يموت. كنت، إذاً، أرقد هناك وحيداً وقد تملّكني الخوف. كان الجوّ بارداً، وكنت أنا أيضاً أريد الفرار .. نعم، كنت أنوي الفرار في تلك اللحظة، ثم...

فقال الرجل وقد بدأ يبحث عن قلمه: «وقتي ضيّق جداًّ!».

- لا بدّ أن تصغي إليّ، فسوف يبدأ الآن الجزء المثير في القصة. فما إن عزمت على الفرار، حتى حدث ما حدث لساقي. ولأنه لم يكن هناك مفرّ من أن أظلّ راقداً، قلت لنفسي: الآن تستطيع الإبلاغ، وأبلغت.. وهربوا كلّهم.. بالترتيب: اللواء في المقدّمة، وبعده الكتيبة، وأخيراً الفصيلة.. وهكذا.. دائماً بالترتيب. قصة سخيفة.. لقد نسوا أن يأخذوني معهم، هل تفهم؟ كانوا متعجّلين للغاية. قصة سخيفة فعلاً، فلو لم أفقد ساقي لماتوا جميعاً، اللواء والعقيد والرائد.. دائماً حسب الأقدمية، ولكنتم في غير حاجة الآن إلى صرف معاشات لهم. والآن فلتحسب كم تكلّف ساقي: اللواء يبلغ من العمر اثنين وخمسين، العقيد: ثمانية وأربعين، الرائد: خمسين، وجميعهم في أتمّ صحة، قلباً وعقلاً، وبفضل نظام حياتهم العسكري فسوف يعمّرون حتى يبلغوا الثمانين على الأقل مثل «هندنبورغ»(*)، فلتتفضّل ولتحسب الآن: مئة وستّون في اثنتي عشرة في ثلاثين، فلتعتبر أن المتوسط ثلاثون عاماً على الأقل، أليس كذلك؟ إن ساقي لتصبح بذلك غاليةً غلاءً جنونيّاً.. واحدة من أغلى السيقان التي أستطيع تخيّلها. هل تفهم؟

فردّ الرجل: «أنت مجنون».

أجبته قائلاً: «لا. لست مجنوناً. يؤسفني أنني سليم القلب والعقل، ومن المؤسف أيضاً أنني لم أُقتل قبل أن أُصاب في ساقي بدقيقتين.. كنّا سنوفّر نقوداً كثيرة».

وسألني الرجل: «هل تقبل الوظيفة؟».

فأجبته بهدوء: «لا». وانصرفت.

(*) الجنرال باول فون هندنبورغ Paul von Hindenburg (1847-1934): شارك في الحروب الألمانية الفرنسية (1870-1871) وأنهى خدمته في الجيش عام 1911. لكنه استُدعي مرة أخرى ليشارك في الحرب العالمية الأولى. بعد انتهاء الحرب اتخذ مواقف يمينية فاشية، ويعتبر ممّن مهّدوا الطريق لهتلر كي يصل إلى الحكم عام 1933. [المترجم]

عند الجسر

رقعوا ساقي، ومنحوني وظيفة أستطيع ممارستها جالساً: عليّ أن أحصي الذين يعبرون الجسر الجديد. إنهم يستمتعون عندما يبرهنون بالأرقام على مهارتهم، وينتشون من هذا اللغو السخيف المكوّن من بضعة أرقام. طوال النهار وفمي الأخرس لا يكفّ عن الحركة كتروس الساعة وأنا أكوّم رقماً إلى جانب رقم، لأهديهم في كلّ مساء انتصاراً عددياً.

تُشرق وجوههم عندما أخبرهم بنتيجة عملي اليومي، وكلّما تضخّم العدد، ازدادوا إشراقاً؛ فلديهم الآن سببٌ ليرقدوا على فراشهم راضين عن أنفسهم: آلافٌ مؤلّفة تعبُر يوميّاً جسرهم الجديد.

ولكن إحصاءهم لا يطابق الحقيقة. أنا آسف، لكنّه لا يطابق الحقيقة. أنا إنسان غير جدير بالثقة، على الرغم من أنني أعرف كيف أترك انطباعاً بالاستقامة.

يطيب لي سرّاً أن أغفل أحياناً عدّ شخص، ثم، عندما أشعر بالشفقة، أعود وأهديهم بضعة أرقام. سعادتهم في يدي. وعندما أكون غاضباً، إذا لم يكن لديّ ما أدخّنه، لا أكتب لهم إلا المتوسط وأحياناً دون المتوسط. وحينما يخفق قلبي، إذا كنت سعيداً، أترك كرَمي يتدفّق في عددٍ ذي خمسة أرقام. يا لسعادتهم عندئذ! بطريقةٍ رسمية ينتزعون النتيجة من يدي في كلّ مرّة، ثم يربّتون على كتفي. إنهم لا يدرون شيئاً! ثم يبدؤون في عمليات الضرب والقسمة واستخراج النسبة المئوية.. لأيّ شيء؟ لا أدري. يحسبون عدد الذين عبروا الجسر اليوم في كلّ دقيقة، وعدد الذين سيعبرونه في غضون عشر سنوات. يعشقون المستقبل البعيد.. المستقبل البعيد هو ما يفضّلونه - ولكن، يؤسفني القول، كلّ ذلك ليس صحيحاً.

فعندما تعبر حبيبتي القصيرة الجسر، وهى تعبره مرّتين يوميّاً، يمتنع قلبي ببساطة عن الخفقان، ونبضات القلب، التي لا يدركها ملل ولا كلل، تتوقّف تماماً حتى تميل حبيبتي في اتجاه الطريق الرئيسي وتغيب عن الأنظار. وكلّ من يمرّ في تلك الفترة أخفيه عنهم ولا

أسجّله. هاتان الدقيقتان هما ملكي، لي أنا وحدي، ولن أدعهم يأخذونهما منّي. وعندما تعود كذلك في المساء من محلّ «الآيس كريم»، عندما تسير على الرصيف الآخر المواجه لفمي الأخرس الذي لا بدّ أن يحصي ويحصي، فإن قلبي يتوقّف من جديد، ولا أشرع ثانيةً في العدّ إلا عندما تختفي عن بصري. وجميع الذين يسعدهم الحظ بالمرور في تلكما الدقيقتين أمام عيني العمياء لا يُخَلَّدون في الإحصاء! رجال ونساء يبقون في الظلّ. كائنات عدمية لن تنضمّ إلى الإحصاء ومستقبله البعيد.

من الواضح أنني أحبُّها. لكنّها لا تدري عن ذلك شيئاً، ولا أريد أيضاً أن تعرف شيئاً. ليس لها أن تعرف كيف تقلب كلّ الحسابات رأساً على عقب. عليها بشعرها البنّيّ الطويل وقدميها الرقيقتين أن تمضي في سيرها إلى محلّ الآيس كريم، بغير علمٍ وبلا إحساس بالذنب، وتحصل على نقود وفيرة بقشيشاً. أحبّها. حبّي لها واضحٌ كالشمس.

منذ فترة وجيزة قاموا بالتفتيش عليّ. في الوقت المناسب نبّهني زميلي الذي يجلس على الجانب الآخر ليُحصي السيّارات، فتيقّظت حواسّي كلّها. كنت أحصي كالمجنون، عدّاد الكيلومترات لا يمكن أن يحصي أحسن منّي. رئيس الإحصائيين وقف بنفسه أمامي، ثم جاء وقارن نتيجة إحصاء ساعة بما كتبته في كشف الإحصاء. العدد الذي سجّلته ينقص رقماً واحداً عن عدده. حبيبتي القصيرة كانت قد عبرت، ولن أسمح في حياتي بنقل هذه الصغيرة الجميلة إلى المستقبل البعيد، حبيبتي القصيرة لن تُجرى عليها عمليات الضرب والقسمة، ولن تتحوّل إلى سخفٍ ذي نسبة مئوية. انفطر قلبي عندما ظللت أحصي دون أن أتتبّعها ببصري، ولكنني أدين بالشكر الجزيل لزميلي الذي يجلس أمامي ويحصي السيارات، فقد كان التفتيش مصيريّاً بالنسبة لي.

ربّت رئيس الإحصائيين على كتفي وقال إنني إنسان كفء ومخلص ويُعتمد عليه. وقال أيضاً: «ليس شيئاً أن تخطئ في عدّ شخصٍ واحد خلال ساعة، فنحن نضيف على أيّ حال نسبة مئوية معينة لتعويض الفاقد. سوف أوصي بنقلك إلى العربات التي تجرّها الخيل».

عربات الخيل هي بالطبع فرصتي الذهبية. عربات الخيل راحة ما بعدها راحة. عربات الخيل أقصى عدد تصل إليه في اليوم خمس وعشرون عربة. كلّ نصف ساعة تسقط في رأسك رقماً.. هذه هي الراحة!

عربات الخيل ستكون فرصة رائعة. ما بين الساعة الرابعة والثامنة لا يُسمح مطلقاً بمرورها على الجسر. يمكنني عندئذٍ أن أذهب للتنزّه، أو إلى محلّ الآيس كريم، يمكنني أن أراها مدة أطول، أو ربما أرافقها قليلاً إلى المنزل.. حبيبتي القصيرة التي لم تُعَدّ.

وداع

كنّا في ذلك الجوّ النفسي البغيض عندما ينتهي اثنان من توديع أحدهما الآخر، لكنّهما لا يستطيعان الافتراق، لأن القطار لم يشرع في تحرُّكه بعد. كانت ساحة المحطّة، ككلّ ساحة محطّة، قذرة، تعصف تيّارات الهواء بجوانبها، مشبعةً بالبخار المتصاعد من القاطرة، ومشبعة بالضجيج: ضجيج الأصوات والعربات.

كانت شارلوته تقف عند نافذة الممرّ الطويل في عربة القطار، تتوالى عليها من الخلف الخبطات، ومن الجانب اللكمات، ومن كلّ مكانٍ تنهال عليها اللعنات. ولكن ما كان ممكناً في تلك العربة المكدّسة أن نتفاهم بالإشارات أثناء تلك الدقائق الأخيرة، آخر وأثمن دقائق تجمعنا في الحياة.

«فكرة طيّبة» -كرّرَت هذه الجملة للمرّة الثالثة- «كانت فكرةً طيّبة فعلاً أن مررتَ عليّ».

- أرجوكِ... لا تقولي هذا! فكلٌّ منّا يعرف الآخر منذ مدّة طويلة: خمسة عشر عاماً.

- نعم.. نعم. بلغنا الآن الثلاثين.. ولكن هذا ليس سبباً على أيّ حال.

- لا تكملي، أرجوك! نعم.. لقد بلغنا الثلاثين. مثل عمر الثورة الروسية. مثل عمر القذارة والجوع...

- أصغر قليلاً.

- أنت محقّة.. ما زلنا صغار السن جدّاً.

وضحكت، ثم سألتني بعصبية، بعد أن خبطتها حقيبةٌ ضخمة من الخلف: «هل قلت شيئاً؟».

- لا... تلك كانت ساقي.

- لا بدّ أن تفعل شيئاً لساقك!

- نعم.. سأفعل.. فهي تُكثر التحدّث.

- هل ما زال بإمكانك، أصلاً، أن تقف؟

- نعم.

وكنت أريد أن أقول لها إنني أحببتها، ولكنني لم أستطع مصارحتها، منذ خمسة عشر عاماً.

- ماذا؟

- لا شيء.. السويد، سترحلين إذاً إلى السويد؟!

- نعم، أخجل من نفسي قليلاً.. فالقذارة والملابس الرثّة والأنقاض هي في الواقع حياتنا.. لذا أخجل من نفسي قليلاً. إنني أحتقر نفسي!

- كلام سخيف.. حياتك هناك. عليك أن تفرحي لسفرك إلى السويد!

- أحياناً أفرح أيضاً، أتعرف، الطعام، لا بدّ أن يكون رائعاً، ثم لا شيء.. لا شيء على الإطلاق مهدّم. خطاباته كلّها حماس.

دوّى الصوت الذي يعلن انطلاق القطارات في الرصيف التالي لنا، فزعت، لكنه لم يكن قطارنا بعد. أعلن الصوت انطلاق قطار دوليّ آتياً من روتردام ومتجهاً إلى بازل، وبينما كنت أرقب وجه شارلوته الرقيق الدقيق، هبّت عليّ رائحة صابون وقهوة، وأحسست ببؤسٍ لا نظير له. وللحظة اعترتني شجاعة يائسة، كنت أريد أن أنتزع هذه الفتاة صغيرة الجسم من الشبّاك انتزاعاً، وأبقيها هنا.. إنها لي، أنا الذي أحببتها.

- ما بك؟

فأجبتها: «لاشيء.. عليك أن تفرحي لسفرك إلى السويد!».

- نعم، لديه طاقةٌ جبّارة، ألا ترى ذلك أنت أيضاً؟ كان أسيراً في روسيا لمدة ثلاثة أعوام، ثم هرب هروباً حفّت به المخاطر، والآن يلقي محاضرات هناك عن الرسّام روبنز.

- رائع .. فعلاً رائع!

- لا بدّ أن تفعل شيئاً أنت أيضاً، احصل على الدكتوراه على الأقل!

- اخرسي!

«ماذا؟» - سألتني بفزع، وقد شحب لونها تماماً: «ماذا؟».

فهمستُ: «سامحيني! لا أعني إلا ساقي، فأنا أحياناً أتكلّم معها».

ما كانت تشبه أبداً روبنز. كانت بالأحرى تشبه بيكاسو. لم أنقطع يوماً عن مساءلة نفسي، لماذا يريد أن يتزوّجها، لماذا؟ لم تكن في يوم من الأيام جميلة، والذي كان يحبها هو أنا. كانت الحركة على الرصيف قد هدأت بعد أن أخذ المسافرون أماكنهم، لم يقف حولي إلا بعض المودّعين. في أيّ لحظة سيُعلن الصوت انطلاق القطار. أيّ لحظة قد تكون هي الأخيرة.

- لا بدّ أن تفعل شيئاً، أيّ شيء، لا يمكن أن تستمر على هذا الحال.

قلت لها: «لا يمكن».

كانت على العكس تماماً من رسوم روبنز: رشيقة، طويلة الساقين، عصبية، وكانت في عمر الثورة الروسية، في عمر الجوع والقذارة في أوروبا، وفي عمر الحرب.

- لا أستطيع أن أصدّق.. السويد.. كأنّه حلم.

- حياتنا كلّها.. حلم.

- هل ترى هذا؟

- بالتأكيد. خمسة عشر عاماً. ثلاثون عاماً.. ثم ثلاثون عاماً. ولماذا الحصول على الدكتوراه؟ الأمر لا يستحقّ. اسكتي، عليك اللعنة!

- هل تتحدّث مع الساق؟

- نعم.

- وماذا تقول؟

- أنصِتي!

صمتنا تماماً، وتبادلنا النظر، وابتسمنا. بُحنا بما في داخلنا، دون أن ننطق كلمة. ثم ابتسمت لي.

- هل فهمت الآن، هل الأمر على ما يرام؟

- نعم.. نعم.

- حقاً؟

- نعم.. نعم.

وأكملت كلامها بصوت خافت: «ألا ترى أنه لم يكن مهمّاً أن نكون معاً و... و.. ليس هذا بالشيء المهمّ، ألا ترى ذلك؟».

وانطلق الصوت الذي يُعلن موعد انطلاق القطارات فوق رأسي بالضبط، ارتجفت، كأنما انهال على الساحة سوطٌ بوليسي هائل الحجم.

- إلى اللقاء!

- إلى اللقاء!

وببطء متناهٍ بدأ القطار يتحرّك حتى ابتلعه ظلام الأفق.

أيها الجوّال، إذا وصلت أسبـ...

عندما توقّفت السيارة ظلَّ المحرّك يهدر لبرهة، وفي الخارج فُتحت بوّابة كبيرة على مصراعيها. نفذ ضوءٌ عبر النافذة المهشّمة إلى داخل السيارة، الآن أرى أن المصباح الكهربائي المثبت في سقف السيارة تحطّم، ولم يبقَ منه سوى قاعدته المتعلّقة برأس المسمار وبعض الأسلاك اللامعة وبقايا زجاج. كفَّ المحرّك عن الهدير، وفي الخارج صرخ صوت: «الموتى هنا - هل معكم موتى؟».

أجابه السائق: «اللعنة! لم تعودوا تقومون بالتعتيم؟».

فأجابه الصوت الغريب: «لم يعد يُجدي أيٌّ تعتيم، فالمدينة كلّها تحترق كالشعلة. سألتك ما إذا كان معكم موتى؟».

- لا أعلم.

- الموتى هنا، هل تسمع؟ أما الآخرون فإلى فوق، إلى المرسم، هل تفهم؟

- نعم، نعم.

لكنّني لم أكن قد متّ بعد، كنت ضمن الآخرين، فحملوني صاعدين الدرج. في البداية ساروا بي في ممرٍّ طويل خافت الإضاءة طُليت جدرانه باللون الأخضر، على الجدران ثُبِّتت مشاجبُ مقوّسة سوداء عتيقة، ثم لاحت أبوابٌ عليها لافتاتٌ معدنية بيضاء: 6/1 و 6/2، وبين البابين لمعت في رقّة تحت الزجاج في إطارها الأسود لوحة «الميديا» لفويرباخ(**) ناظرةً إلى الأفق البعيد؛ ثم اقترب بابان: 5/1 و 5/2 وبينهما عُلّقت صورة فوتوغرافية للوحة «نازع الشوكة» - صورة رائعة تلمع في حمرة داخل الإطار البنّيّ. والعمود الضخم في المنتصف أمام مدخل الدرج كان أيضاً هناك، وخلفه نسخة مقلّدة من الجبس لإفريز معبد

البارتنون الإغريقي، يبدو حقيقياً عتيقاً بلونه الأصفر - ثم تعاقب كلّ شيء كما ينبغي أن يكون: الجنديّ الإغريقي المدجّج بالسلاح، زاهي الألوان خطيراً ونافشاً ريشه كالديك. وفي أسفل الدرج، على الحائط المطلي هنا بالأصفر، كانوا مُعلّقين جميعاً بالترتيب: من الأمير الأكبر حتى هتلر.

وهناك، في الممرّ الصغير الضيّق، حيث رقدتُ أفقيّاً على المحفّة أخيراً ولبضع خطوات، هناك رأيت الصورة الجميلة جدّاً، والكبيرة جدّاً، والملوّنة جدّاً، صورة القيصر العجوز فريتس، بزيّه العسكري الأزرق السماوي وعيونه اللامعة، وبالنجمة الكبيرة الذهبية البرّاقة على صدره.

عدت إلى رقدتي المائلة فوق المحفّة، مرّوا بي أمام الوجوه المميّزة للأجناس المختلفة: هناك القبطان الآتي من الشمال بفمه الأبله يحدّق كالنسر، والمرأة الغربية القادمة من ضفاف نهر الموزل، نحيفة بعض الشيء حادّة النظرات، والشرقي المبتسم بعَبَط ذو الأنف المتضخّم كالبصلة، والوجوه الجانبية المسحوبة لرجال الجبال الذين تبرز لديهم تفاحة آدم؛ ثم لاح ممرٌّ آخر، حيث رقدتُ ثانية ولبضع خطوات أفقياً على محفّتي، وقبل أن يهمّ الحمّالون بالصعود إلى الدرج الثاني استطعت أن أراه: النصب التذكاري للمحارب، بصليبه الحديدي الكبير، ذهبيّ اللون، وعلى رأسه إكليل الغار الحجري.

مرَّ كلّ ذلك بسرعة فائقة: لست ثقيلاً، والحمّالون كانوا يركضون. على كلّ حال: كلّ ذلك من الممكن أن يكون خداعاً، درجة حرارتي عالية جداً، وكنت أشعر بالألم في كلّ مكان؛ في الرأس، في الذراعين، في القدمين. قلبي يدقّ كالمجنون، والمحموم يرى كلّ شيء!

لكن عندما مررنا أمام الوجوه المميّزة للأجناس المختلفة، تتابعت عليّ كلّ الأشياء الأخرى: التماثيل النصفية الثلاثة ليوليوس قيصر وشيشرون ومارك أوريل، بتهذيب يقفون الواحد بجانب الآخر، نسخ رائعة التقليد، صفراء وتبدو أصلية تماماً، صُفّوا أمام الجدار بطريقة توحي بالقِدم والمهابة. ثم جاء عمود هرميس(***) عندما ملنا في زاوية الدرج، وفي نهاية الممرّ تماماً، الذي كان هنا مطليّاً باللون الأحمر الورديّ، عُلّقت فوق مدخل المرسم اللوحة

الكبيرة لوجه زيوس الفظيع، كبير آلهة الإغريق. لكن وجه زيوس الفظيع ما زال بعيداً. من خلال النافذة يميناً رأيت لهيب النيران، السماء كلّها حمراء، وسحبٌ سوداء كثيفة من الدخان كانت تمرّ بتؤدة.

وجدت نفسي مجبراً على النظر تجاه اليسار ثانية، فرأيت من جديد لافتة فوق بابين: 1/1 و 1/2، وبين البابين ذوَي اللون البنّيّ والرائحة العطنة لم ألمح إلا شارب نيتشه وأرنبة أنفه داخل الإطار المذهّب، لأنهم لصقوا فوق النصف الآخر من اللوحة ورقة كُتب عليها: «العمليات الجراحية الصغيرة»...

إذا رأيت الآن.. مرّت الفكرة بسرعة في ذهني.. إذا رأيت الآن.. ولكن ها هي ذي: صورة مستعمرة توغو، كبيرة ملوّنة، منبسطة كالرمح القديم، في طباعة فاخرة، وفي صدر الصورة، أمام بيوت المستعمرين، أمام الزنوج والجندي الذي وقف مشهراً سلاحه بلا أيّ معنى، كانت سباطة الموز الكبيرة، طبيعية في تصويرها كأنها حقيقة: يساراً سباطة، ويميناً سباطة، وعلى الموزة الوسطى في السباطة اليمنى، هناك شخبطة ما، رأيتها؛ فأنا الذي كتبتها.

والآن فُتح باب المرسم على مصراعيه، تأرجحتُ تحت التمثال النصفي لزيوس، وأغلقت عيني. لا أريد رؤية أيّ شيء آخر. فاحت في المرسم رائحة اليود والخراء والشاش والتبغ، وساد الضجيج. وضعوني على الأرض، فقلت لأحد الحمّالين: «ضع سيجارة في فمي، يساراً، فوق، في الجيب». وشعرت بأحدهم يتحسّس جيبي، ثم قُدِح عود كبريت، ووجدت في فمي السيجارة المشتعلة. سحبت نفَساً، وقلت: «شكراً». كلّ هذا -قلت لنفسي- ليس دليلاً. ففي كلّ مدرسة ثانوية مرسم، وممرّات مثبت في حوائطها المطلية بالأخضر والأصفر مشاجب قديمة مقوّسة، لا، ليس دليلاً على أنني في مدرستي أن أرى الميديا معلّقة بين فصل خمسة أول وخمسة ثاني، وشارب نيتشه بين أولى أول وأولى ثاني - بالتأكيد هناك تعليمات تفرض تعليقه. لائحة النظام الداخلي في المدارس الثانوية للعلوم الإنسانية في برويسا بشرق ألمانيا: الميديا بين فصل ستة أول وستة ثاني، نازع الشوكة

هناك، يوليوس قيصر ومارك أوريل وشيشرون في الممرّ، ونيتشه في الطابق الأعلى، حيث يدرسون الفلسفة. إفريز معبد البارتينون، وصورة بالألوان لتوغو. نازع الشوكة، وإفريز البارتينون هما في نهاية الأمر من الأشياء العتيقة والأصيلة التي أثبتت وجودها في المدارس عبر الأجيال، ولست بالتأكيد أول تلميذ يخطر على باله أن يشخبط على موزة: تحيا توغو. وحتى النكات التي يتبادلها تلاميذ المدارس.. إنها لا تتغيّر أبداً. فوق كلّ ذلك: لعلّي محموم أو أحلم.

لم أعد أشعر بألم الآن. في السيارة كان الأمر أسوأ؛ كنت أصرخ في كل مرة تمرّ السيارة فيها على أحد المطبّات الصغيرة، أما في الحفر الكبيرة فقد كان الوضع أفضل: كانت السيارة ترتفع وتهبط كأنها سفينة بين الأمواج. يبدو أن مفعول الحقنة -التي رشقوها في الظلام في مكانٍ ما بذراعي- بدأ الآن يسري: شعرت آنذاك بالإبرة تنغرس في جلدي وبحرارة شديدة في أسفل ساقي.

لا.. لا يمكن أن يكون ذلك حقيقة، أخذت أفكّر، فالسيارة لم تقطع كل هذه الكيلومترات: قرابة ثلاثين. ثم إنك لا تشعر بشيء، إحساسك لا ينبئك بذلك، العينان فحسب؛ إحساسك لا ينبئك بأنك في مدرستك، مدرستك التي تركتها قبل ثلاثة أشهر فقط. ثماني سنوات ليست مدة هيّنة - هل تريد أن تتعرّف على كلّ ذلك بعينيك فقط، بعد ثماني سنوات قضيتها هنا؟

من خلف جفنيّ المغلقَين استعدت رؤية كلّ شيء، كفيلمٍ جرى أمام عيني: الممرّ السفلي، الطلاء الأخضر، صعود الدرج، الطلاء الأصفر، النصب التذكاري للمحارب، الممرّ، صعود الدرج، يوليوس قيصر وشيشرون ومارك أوريل... هرميس، شارب نيتشه، توغو، وجه زيوس الفظيع...

بصقت سيجارتي وصرخت؛ كان من المفيد دائماً أن أصرخ؛ على المرء أن يصرخ عالياً، ما أروع الصراخ! صرخت كالمجنون. حتى عندما انحنى شخص تجاهي لم أفتح عيني، شعرت بأنفاسٍ غريبة، دافئة وكريهة، وفاحت رائحة التبغ والبصل. سألني صوت بهدوء: «ما بك؟».

«أريد أن أشرب» -قلت- «وسيجارة أخرى، في الجيب، فوق».

وشعرت بأحدهم يتحسّس جيبي مرّة أخرى، ثم قُدح عود كبريت مرة أخرى، ووجدت في فمي سيجارة مشتعلة.

سألت: «أين نحن؟».

«في بندورف».

فقلت: «شكراً»، وسحبت نَفَساً.

يبدو إذاً أنني في بندورف، أي في مدينتي، وإذا لم تكن حرارتي مرتفعة عن المعتاد، فمن المؤكّد أنني في مدرسة ثانوية للدراسات الإنسانية: بالتأكيد هذه مدرسة. ألم يصرخ الصوت في الدور الأرضي: «أما الآخرون فإلى المرسم». أنا من الآخرين، أنا عشت؛ يبدو أن الذين عاشوا هم الآخرون. إذاً هذا هو المرسم، وإذا لم أخطئ في السمع، فلماذا أخطئ في الرؤية؟ إذاً فالأمر صحيح: لقد تعرّفت على يوليوس قيصر وشيشرون ومارك أوريل، وهؤلاء لا يُعلَّقون إلا في مدرسة ثانوية للدراسات الإنسانية؛ لا أعتقد أنهم يُعلِّقون مثل هذه الكائنات في المدارس الأخرى، في الممرّات وعلى الجدران.

أخيراً أُحضر لي ماء: وشممت ثانيةً رائحة التبغ والبصل تفوح من فمه، ورغماً عني فتحت عيني: من فوق بدلة رجال الإطفاء يطلّ وجهٌ متعب، عجوز وغير حليق. قال صوت عجوز: «اشرب يا زميل!».

وشربت. كان ماء، لكن الماء رائع. شعرت بالطعم المعدني للإناء فوق شفتي، وكان جميلاً أن أشعر بأنني أعبّ كمية كبيرة من الماء، لكن رجل الإطفاء انتزع الإناء من بين شفتيّ ومضى: صرخت، لكنّه لم يستدِر ناحيتي، فقط هزَّ كتفيه متعباً وواصل المسير. أحد الذين يرقدون جانبي قال بهدوء: «الصراخ لا يجدي على الإطلاق. لم يعد لديهم ماء. المدينة تحترق، ألا تراها؟». كنت أراها من خلال النوافذ المعتمة، توهّجت النيران وتصاعد فحيحها

خلف الستائر السوداء، حمرة من وراء سواد، كمدفأة ألقوا فيها فحماً جديداً. رأيتها: نعم، المدينة تحترق.

سألت الذي يرقد جواري: «ما اسم المدينة؟».

ردّ قائلاً: «بندورف».

«شكراً!».

وجّهت نظري إلى الأمام تجاه النوافذ، وأحياناً تجاه السقف. ما زال السقف سليماً تماماً، أبيض، مستوياً، ويحيط بحافته شريطٌ من الجصّ على الطراز الكلاسيكي؛ لكن في كلّ المدارس هناك شريط من الجصّ على الطراز الكلاسيكي يحيط بالسقف في صالات الرسم، على الأقل في المدارس الثانوية للدراسات الإنسانية التي تتمتّع بالعراقة والمستوى الرفيع. لا شك في ذلك.

ينبغي أن أعترف الآن لنفسي أنني أرقد في مرسم إحدى المدارس الثانوية للدراسات الإنسانية في بندورف. في بندورف ثلاث مدارس ثانوية: مدرسة فريدريش الأكبر، ومدرسة ألبرتوس، والثالثة -هو أمر لا يحتاج إلى ذكر- الثالثة والأخيرة هي مدرسة أدولف هتلر. ألم يعلّقوا في مدرسة فريدريش الأكبر صورة فريتس العجوز الملوّنة جداً، والجميلة جداً، والكبيرة جداً في أسفل الدرج؟ كنت في تلك المدرسة، ثماني سنوات بأكملها، ولكن أليس من المحتمل أن تكون هذه الصورة معلّقة في المكان نفسه بالمدارس الأخرى، في مكان واضح لافت لنظر مَن يصعد الدرج الأول؟

الآن أسمع دويّ المدفعية الثقيلة من الخارج. في ما عدا ذلك كاد الهدوء يخيّم على المكان؛ إلا عندما تقتحم المكان طقطقة النيران وهي تفترس ما أمامها، وفي الظلام كنت أسمع صوت تهاوي عروق الخشب في مكانٍ ما. دوّت طلقات المدفعية بهدوء وانتظام، وقلت لنفسي: مدفعية تؤدي واجبها على خير وجه! أعرف أن تفكيراً كهذا وضيع، لكن هذا ما

فكّرت فيه. يا إلهي، كم كانت المدفعية مهدّئة ومريحة: صوت مظلم خشن.. كعزف أرغن بارع رقيق. به رقيٌّ ما. نعم، أرى أن المدفعية تتسم بالرقيّ، حتى عندما تطلق قذائفها. صوت المدفعية مهيب، يثير لديك فوراً الإحساس بالحرب كما تعرفها في الكتب المصوّرة... ثم فكّرت في عدد الأسماء التي سوف تُنقَش على النصب التذكاري للمحارب، عندما ينصبونه من جديد، بعد أن يزوّدوه هذه المرة بصليبٍ حديديّ مذهّب أكبر حجماً، وكذلك بإكليل غار حجري أكبر وأكبر - وفجأة انتابتني فكرة: إذا كنت فعلاً في مدرستي القديمة، فسوف ينقشون اسمي أنا أيضاً على الحجر، وفي سجلّ المدرسة التذكاري سوف يكتبون خلف اسمي: «انتقل من المدرسة إلى ميدان القتال، وسقط شهيد الـ...».

لكنني لم أكن أدري بعد شهيد ماذا، ولم أكن أدري ما إذا كنت بالفعل في مدرستي القديمة. لا بدّ أن أعرف ذلك الآن وبأيّ ثمن. على النصب التذكاري للمحارب لم يكن هناك شيء مميّز، شيء لافتٌ للنظر.. مثله مثل كلّ النُّصب الأخرى، هو بالتأكيد نصب تذكاري جاهز الصنع، بالتأكيد يحصلون عليه من مركزٍ ما للتوزيع.

تجوّلت ببصري في المرسم، لكنهم كانوا قد نزعوا اللوحات. ماذا يستطيع المرء أن يرى في بعض الدكك المكوّمة في أحد الأركان؟ ماذا ترى في النوافذ، الضيّقة العالية، الكثيرة، المصطفّة كلّ نافذة بجوار أختها حتى تسمح بأكبر قدر ممكن من الضوء بالنفاذ، كما ينبغي أن يكون الأمر في قاعة رسم؟ قلبي لا ينبئني بشيء. ألم يكن سينبئني بشيء إذا كنت عشت في هذا المكان من قبل، ثمانية أعوام، وأنا أرسم مزهريات وأتمرّن على زخرفة الخط: مزهريات زجاجية رومانية، رشيقة، رقيقة، رائعة التقليد، كان المدرّس يضعها أمامنا على الحامل؛ والخطوط بمختلف أنواعها: الخط الدائري والقديم والروماني والإيطالي؟ كرهت هذه الحصّة كما لم أكره شيئاً في المدرسة كلّها، ساعاتٍ طوالاً وأنا ألوك الملل، لم أعرف قطّ كيف يرسمون مزهرية ولا كيف يزخرفون خطّاً. لكن، أين هي لعناتي؟ أين هي كراهيتي تجاه هذه الحوائط المملّة الداكنة اللون؟ لم يتحدّث في أعماقي شيء، وهززت رأسي صامتاً. ودائماً كنت أمحو، أبري القلم الرصاص، وأمحو... ولا شيء.

لم أكن أعرف على وجه الدقة درجة إصابتي، كنت أعرف فقط أنني لم أعد أستطيع تحريك ذراعيّ، والساق اليمنى أيضاً، فقط اليسرى قليلاً؛ كنت أعتقد أنهم ربطوا ذراعي بجسدي، ربطوها بقوة إلى درجة أنني لم أستطع تحريكهما. بصقت السيجارة الثانية في الممر بين أجولة القش، وحاولت أن أحرّك ذراعيّ، ولكنّهما آلماني جداً حتى صرخت؛ وواصلت الصراخ، جميل دائماً أن تصرخ، كنت أيضاً حانقاً لأنني لم أستطع تحريك ذراعيّ.

عندئذٍ وقف الطبيب أمامي. خلع نظّارته محملقاً فيّ، لم يقل شيئاً، ووراءه وقف رجل الإطفاء الذي أعطاني الماء. همسَ في أذن الطبيب، ثم وضع الطبيب النظّارة أمام عينيه: رأيت بوضوح عينيه الكبيرتين الرماديتين، وحدقتيه اللتين ارتعشتا قليلاً خلف عدسات النظّارة السميكة. حدّق فيّ طويلاً، حتى أنني أشحت ببصري بعيداً، فقال بصوت خافت: «انتظر قليلاً، قريباً سيحين دورك!».

ثم رفعوا الذي يرقد بجانبي وحملوه خلف السبّورة؛ تابعتهم ببصري: كانوا قد فكّوا أجزاء السبّورة ووضعوها عرضيّاً، وأغلقوا الثغرة بين الحائط والسبّورة بملاءة سرير، وفي الخلف توهّج ضوء ساطع.

لم يُسمع أيّ صوت إلى أن أُزيحت الملاءة مرة أخرى وحملوا الذي كان يرقد بجانبي إلى الخارج؛ بوجوه متعبة لا مبالية جرّه الحمّالون حتى الباب. أغلقت عيني ثانية وقلت لنفسي: لا بدّ أن تعرف ما هي إصابتك، وما إذا كانت هذه مدرستك القديمة.

كنت أشعر بالبرودة واللامبالاة تجاه كل شيء، وكأنهم حملوني عبر متحف مدينة ميّتة، عبر عالم بدا لي غريباً وغير مثير للاكتراث، على الرغم من أن عيني تعرّفت عليه، عيني فقط؛ ليس من المعقول أنني قبل ثلاثة أشهر كنت أجلس هنا، أرسم مزهريات وأزخرف الخط، وفي الفسحة أنزل إلى أسفل ومعي سندوتشات المربّى بالزبدة، مارّاً في طريقي بنيتشه، وهرميس، وتوغو، ويوليوس قيصر، وشيشرون، ومارك أوريل، بخطوات بطيئة حتى أصل إلى الممر السفلي حيث الميديا، ثم أتجه إلى بوّاب المدرسة، بيرغلر، لأشرب عنده الحليب... في تلك الحجرة الصغيرة المظلمة كان من الممكن أن تخاطر وتدخّن سيجارة، رغم أن ذلك

كان ممنوعاً. لقد حملوا الراقد جواري بالتأكيد إلى أسفل حيث يرقد الموتى، ربما رقد الموتى في حجرة بيرغلر الصغيرة المظلمة، حيث كانت تفوح رائحة الحليب الدافئ، والتراب، وتبغ بيرغلر الرديء.

أخيراً عاد الحمّالون إلى الصالة، والآن رفعوني وحملوني خلف السبّورة. تأرجحت ثانية، الآن عبر الباب، وأثناء مروري المتأرجح رأيت وتأكّدت: فوق الباب كان هناك في يومٍ ما صليبٌ معلّق، عندما كانت المدرسة تُسمّى مدرسة توماس. ثم جاء الوقت الذي نزعوا فيه الصليب، لكن أثره ظلَّ واضحاً عنيداً: بقعة صفراء داكنة صليبية الشكل زاهية اللون، ربما بدت البقعة أوضح من ذلك الصليب العتيق، الضعيف، الصغير الذي علّقوه؛ بقيت علامة الصليب نظيفة جميلة على الدهان الباهت للحائط. لغضبهم أمروا آنذاك أن يُطلى الحائط كلّه من جديد، لكن ذلك لم يجدِ نفعاً؛ لم يختر المبيّض درجة اللون المناسبة: فبقي الصليب في مكانه، بنّيّ اللون واضحاً، أما الحائط كلّه فكان ورديّاً. تعالى سبابهم، لكن دون جدوى: بقي الصليب في مكانه، بنّيّ اللون واضحاً على الحائط الوردي، أعتقد أن ميزانية الطلاء نفدت، ولم يستطيعوا فعل شيء.

بقي الصليب، وإذا دقّقت النظر رأيت الأثر المائل للغصن الذي يعلّقونه تذكاراً لآلام المسيح، على عرق الخشب الأيمن كان أثر الغصن واضحاً، فقد كان يثبّته بوّاب المدرسة بيرغلر، عندما كان مسموحاً بتعليق الصلبان في المدارس.

كل ذلك خطر على بالي في جزء من الثانية، عندما حملوني مارّين بالباب ومتوجّهين إلى السبّورة، حيث توهّج الضوء الساطع.

رقدت على طاولة العمليات، ورأيت نفسي بوضوح تام، ولكن صغيراً جدّاً ومنكمشاً، رأيتني في زجاج المصباح الشفاف المعلّق في الأعلى، ضئيلاً وأبيض، كطرد بريدي نحيف في لون الشاش، مثل جنين دقيق رقيق: إذاً فهذا الذي فوق هو أنا.

أدار الطبيب ظهره لي، ووقف عند مائدة ينبش في الأدوات الجراحية؛ عريضاً وعجوزاً وقف رجل الإطفاء أمام السبّورة مبتسماً لي ابتسامة مرهقة حزينة، كان وجهه الملتحي القذر يشبه وجه النائم؛ من فوق كتفيه رأيت على الجانب الخلفي للسبورة المتسخة شيئاً جعل قلبي ينبض بالإحساس لأول مرة منذ أن دخلت بيت الموتى هذا: في مكان خفيٍّ في قلبي استولى عليّ فزع عميق مرعب، وبدأ قلبي يخفق بقوة: ها هو ذا خطّ يدي على السبّورة. فوق، في السطر العلوي. أعرف خطي: الأمر أسوأ من أن ترى نفسك في المرآة، وليس هناك أيّ إمكانية للتشكيك في هوية خطّي. كلّ الأشياء الأخرى لم تكن دليلاً: لا الميديا، ولا نيتشه، ولا الوجوه الجبلية، ولا موز توغو، لا، ولا حتى علامة الصليب فوق الباب: كل ذلك كان في كلّ المدارس متشابهاً، لكنّني لا أعتقد أنهم كتبوا بخط يدي على سبّورات المدارس الأخرى. ما زال القول المأثور هناك، القول الذي كنّا مجبرين على كتابته في تلك الحياة اليائسة التي كنت أعيشها قبل ثلاثة أشهر فقط: أيها الجوّال، إذا وصلت أسبـ...(****)

آه، أعرف، كانت السبّورة صغيرة، وأخذ مدرّس الرسم يسبّني، لأنني لم أختر الحجم المناسب للحروف، ولأن الخط كان كبيراً، ثم قام هو بنفسه -وهو يهزّ رأسه- بكتابة الجملة بالخط الكبير نفسه أسفل جملتي: «أيها الجوّال، إذا وصلت أسبـ...».

سبع مرّاتٍ كانت مكتوبة: بخط يدي، بالحروف القديمة، والقوطية، والمائلة، والرومانية، والإيطالية والدائرية. سبع مرّاتٍ بوضوح لا يرحم: «أيها الجوّال، إذا وصلت أسبـ...».

لبّى رجل المطافئ نداء الطبيب الخافت وانحنى جانباً، فاستطعت رؤية القول بأكمله، كان فقط مشوّهاً بعض الشيء، لأنني كتبت بحروف أكبر من اللازم.

ارتعشت عندما أحسست بوخزة في فخذي الأيسر، أردت أن أسند نفسي، لكنني لم أستطع: نزلت ببصري على جسدي، الآن أرى: لقد فكّوا عني الأربطة، لم يعد لي ذراعان، ولا ساق يمنى، وفجأة سقطت إلى الخلف لأنني لم أستطع أن أسند نفسي، صرخت، تطلّع الطبيب ورجل الإطفاء إليّ بفزع، لكن الطبيب هزّ كتفيه وضغط على مكبس الحقنة الذي هبط

ببطء وهدوء؛ كنت أريد أن أنظر مرة أخرى إلى السبّورة، لكن رجل الإطفاء كان يقف الآن بالقرب مني تماماً مغطّياً السبّورة، أحكم قبضته على كتفي، ولم أشمّ سوى رائحة دخان كريهة منبعثة من بدلته القذرة، لم أرَ إلا وجهه المتعب الحزين، ثم تعرّفت عليه: إنه بيرغلر.

«حليب!»، قلت له بصوتٍ خافت.

(**) Medea: هي ابنة أحد الملوك في أسطورة إغريقية. هجرها زوجها فقتلت عشيقتَه وأطفالها. [م]

(***) هرميس -في الميثولوجيا الإغريقية - رسول الآلهة، وإله التجارة، ورفيق الموتى في العالم السفلي. في العصر البطلمي بمصر شبّهوه بالإله المصري القديم أنوبيس، ربّ التحنيط والعالم السفلي. [م]

(****) النص الكامل للعبارة: «أيها الجوّال، إذا وصلت أسبرطة / فخبّرهم هناك، بأنك / رأيتنا صرعى / كما يقضي القانون»، وهو ترجمة لنقش يوناني كُتب تذكاراً لضحايا أهل أسبرطة الذين لاقوا مصرعهم عام 480 قبل الميلاد. [م]

قم.. قم وانهض!

لم يعد بالإمكان قراءة اسمها على الصليب الخشبي عشوائي الصنع؛ غطاء التابوت الكرتونيّ الهشّ كان مكسوراً، والتلّ الذي كان قائماً منذ عدّة أسابيع امتدّت مكانه الآن بركةٌ تعوم فيها الزهور المتسخة النتنة ومعها عدد من الفيونكات الباهتة اللون، وبينها إبر الصنوبر والأفرع العارية، مما كوّن تشكيلاً بشعاً. أما أعقاب الشموع فلا بدّ أن يد سارقٍ قد امتدّت إليها.

بصوتٍ خافت ناديتها: «قومي.. قومي وانهضي!».

واختلطت دموعي بالمطر ذي الصوت الرتيب المنهمر منذ أسابيع.

وأغلقت عيني: خفت أن تتحقّق أمنيتي. من خلف الجفن المغلق رأيت بوضوح غطاء التابوت الهشّ المكسور الذي لا بدّ أنه يجثم الآن فوق صدرها، لم يستطع مقاومة كتل الطين التي تراكمت فوقه ببرودة ونهم حتى هبطت به إلى داخل التابوت.

وانحنيت لألتقط من الأرض اللزجة الزهور القذرة التي تزيّن القبر، عندئذٍ أحسست فجأة أن الأرض قد انشقّت من خلفي عن خيالٍ فرض نفسه بغتة وبإلحاح، كاللهب الذي يتطاير أحياناً من نار أُخمِدَت.

متعجّلاً رسمت علامة الصليب، وألقيت الزهور مُسرعاً تجاه بوّابة الخروج. انبثق ظلام المساء ثقيلاً من الممرّات الضيّقة المحاطة بالشجيرات الكثيفة، وعندما وصلت إلى الطريق الرئيسيّ سمعت دقّات الجرس الذي يدعو زوّار المقابر للخروج. لم أسمع وقع خطوات من أيّ مكان، ولم أرَ من أيّ جهة أثراً لإنسان، كلّ ما أحسست به أن هناك خيالاً بلا شكل -ولكنّه حقيقي- يحوم خلفي ويتعقّبني.

أسرعت الخطو، أغلقت خلفي البوّابة صدئة الصوت، وعبرت حوض الزهور الدائري في منتصف الشارع حيث تهاوت عربة ترام وقد استباح المطر المتساقط بطنها المنتفخ، بينما أخذت قطرات المطر الوديعة المشتهاة تنقر جسم العربة المعدنيّ.

تغلغل المطر داخل حذائي منذ فترة طويلة، ومع ذلك لم أشعر ببردٍ أو رطوبة؛ حمّى ضارية كانت تنهش دمي حتى وصلت إلى أطرافي. وفي غمرة الخوف الذي انقضّ عليّ من الخلف، استولت عليّ مشاعر غريبة هي مزيج من السقم والحزن.

من بين العشش السكنية البائسة التي تصاعد من مداخنها دخانٌ هزيل، وبين السور الخشبي المُرقّع المتهالك الذي يحيط بمزارع يميل لونها إلى السواد، ومارّاً بأعمدة البرق المتداعية التي بدت متمايلة في ظلمة الليل الزاحف، أخذت أمضي في طريقي بهذه الضاحية البائسة خلال طُرقٍ بدت بغير نهاية. أخطو بلا مبالاة على الحفر المليئة بالمياه، خطواتي تزداد سرعة وأنا أتجه نحو شبح المدينة المهلهل، والممتدّ كمتاهة الأحزان على طول الأفق مُختلطاً بسحب المساء القذرة.

عن يميني ويساري ظهرت خرائب سوداء عملاقة، ثم هجمت عليّ ضوضاء غريبة منبعثة من نوافذ بها إضاءة خافتة، ولاحت ثانية مزارع أرضها سوداء، ومرة أخرى ظهرت منازل.. ڤيلّات متداعية؛ وشعرت بشيء فظيع جعل الرعب لا يتوقّف عن التوغّل داخلي جنباً إلى جنب مع الحمّى التي تملّكتني: كانت الدنيا ظلاماً حالكاً من خلفي، أما أمامي فلقد تكاثفت ظلمة المساء المعهودة؛ أنا أسحب الليل خلفي، سحبته من الأفق البعيد، وحيثما أخطو يحلّ الظلام. لم أرَ شيئاً من ذلك كلّه، ولكنني كنت أعرف: إنني أسحب خلفي شراع الليل المنسدل بلا رحمة، أسحبه خلفي من قبر الحبيبة، حيث بُعث الخيال، وحتى هنا.

بدا العالم وكأنه خلا من الناس: الضاحية سهلٌ هائل يطفح قمامة.. جبال واطئة من الأنقاض هي المدينة التي كانت تبدو بعيدة بعيدة، أما الآن فقد اقتربت بسرعة مريعة. توقّفتُ مرّاتٍ عديدة، شعرت بالظلام خلفي يتباطأ هو الآخر.. يتكاثف.. ثم يتردّد ساخراً بي، ولا يلبث أن يزيحني من طريقه بقوّة وديعة قاهرة.

لم أشعر إلا الآن بالعرق يتدفّق غزيراً من كلّ جسمي. أمسيت أمشي بمشقّة.. ثقيلاً هو الحمل الذي كان عليّ أن أجرّه.. حمل العالم. كنت مربوطاً به بحبال لا تُرى، وكان هو مربوطاً بي، يشدّني إليه حتى أنهكني. مدفوعاً كنت للسير كبغلٍ هزيل يهبط منحدراً، ويدفعه حمله إلى الهاوية دفعاً لا مهرب منه. بكلّ قواي أوقفت نفسي مقاوماً كلّ الحبال التي لا تُرى. خطواتي أصبحت قصيرة تائهة، وكحيوان يائس ارتميت على اللجام الذي يُضيّق عليّ الخناق، وشعرت وكأنّ قدمي غاصت في الأرض، إلا أنني وجدت بعض القوة لأنصب النصف الأعلى من جسدي إلى أن أحسست فجأة أنني لم أعد أستطيع، أنني لا بدّ أن أتوقّف في مكاني.. كان الحمل قادراً على إزاحتي من طريقه؛ وخالجني شعورٌ بأنني فقدت ما يمكنني الاستناد عليه. صرخت، وارتميت ثانية على اللجام الوهمي... سقطت على وجهي، وتمزّق الرباط. أحسست خلفي بحرية لا تُوصف روعتها. أمام عيني امتدّ سهل وضيء، وفيه كانت تقف.. هي، التي كانت ترقد في القبر البائس تحت الزهور القذرة. وكانت هي التي نادت عليّ هذه المرة بوجهٍ باسمٍ قائلة: «قم.. قم وانهض!».

ولكنني كنت قد نهضت وأسرعت إليها.

الشغل شغل

تاجر السوق السوداء الذي كنت أتعامل معه أصبح الآن شريفاً. ظللت فترة طويلة لا أراه، طوال عدّة شهور، وها أنا ذا أكتشفه اليوم في حيٍّ آخر تماماً من أحياء المدينة، بأحد التقاطعات المزدحمة بالمرور. يمتلك هناك كشكاً خشبيّاً مطليّاً بلون أبيض رائع من نوعية ممتازة، وللكشك سقفٌ قصديري فخم ومتين وجديد تماماً يحميه من المطر والبرد. يبيع في الكشك السجائر والمصّاصات.. كلّ شيء أصبح الآن شرعيّاً. للوهلة الأولى سعدت.. نعم، الإنسان يسعد عندما يعود شخص إلى الحياة الطبيعية. عندما تعرّفت عليه كانت أحواله سيّئة، وكنّا حزانى. كنا آنذاك نرتدي على الرأس «كاب» الجندية القديم، وبمجرّد ما أحصل على نقود كنت أذهب إليه. أحياناً كنا نتبادل الحديث.. عن الجوع، عن الحرب، وكان في بعض الأحيان يهديني سيجارة عندما أكون مفلساً. أحضرت له في إحدى المرّات بعض كوبونات الخبز، فقد كنت أعمل آنذاك في تكسير الأحجار لحساب أحد الخبّازين.

الآن تبدو أموره طيّبة. هيئته تبهر الأنظار. امتلاء خدوده لا يفسّره سوى أنه يتناول أطعمة دسمة بانتظام. تعبيرات وجهه تُظهر ثقته بنفسه. لاحظت أنه يلاحق فتاة صغيرة قذرة بالشتائم المهينة ويصرفها عنه، لأنها كانت تريد شراء مصّاصة وينقصها خمسة بفنكات. في أثناء ذلك لم يتوقّف لسانه عن الدوران صعوداً وهبوطاً في فمه، وكأنه يقضي الساعات ليُخلّص أسنانه من ألياف اللحم العالقة بها.

كان مشغولاً جدّاً.. الناس يشترون سجائر كثيرة من عنده، ومصّاصات أيضاً.

ربما لم يكن عليّ أن أفعل ذلك، غير أني ذهبت إليه وناديته: «إرنست»، وأردت التحدّث معه. لقد كنّا -تجّار السوق السوداء آنذاك- نتبسّط جميعاً في الحديث في ما بيننا، ونتحادث بغير كلفة.

دُهش دهشة شديدة، ونظر إليّ بتعجّب قائلاً: «مَن تقصد؟». لاحظت أنه تعرّف عليّ، ولكنّه لم يكن يريد أن يتعرّف عليه أحد. صمتُّ، وتصرّفت كأنني لم أنطق البتّة باسمه، اشتريت بضع سجائر، فقد كان معي بعض النقود، وانصرفت. ظللت أراقبه فترة؛ لم يأتِ الترام الذي أنتظره، ولم يكن لديّ أدني رغبة في الذهاب إلى البيت. في البيت يأتيني دائماً أشخاصٌ يطلبون مالاً: صاحبة البيت تطلب الإيجار، ومحصّل فاتورة الكهرباء. كما أنه ممنوعٌ التدخين في البيت، صاحبة البيت تشمّ كلّ شيء، عندئذٍ ينتابها الغضب الشديد وأسمعها بأذني تصرخ قائلة إنني للتبغ أملك مالاً، أما للإيجار فلا. أن يدخّن الفقراء فتلك خطيئة، وخطيئة أيضاً إذا شربوا الخمر. أعرف أنها خطيئة، لذلك لا أفعلها إلا في الخفاء. أدخّن خارج المنزل، وفي بعض الأحيان عندما أرقد على فراشي مستيقظاً ويعمّ الهدوء البيت، حينئذٍ أعلم أنه لن يبقى للدخان أثر حتى الصباح، فأدخّن في البيت أيضاً.

الفظيع في الأمر أنني لا أعمل. لا بدّ للإنسان من أن يعمل. هكذا يقولون. كانوا آنذاك كلّهم يقولون إن هذا ليس مهمّاً - لا نحتاج إلا جنوداً. والآن يقولون إن الإنسان يجب أن يعمل. هكذا فجأة. يقولون إن من الكسل ألّا يعمل الإنسان. ولكن الأعمال التي يطلبونها مني لا أريد القيام بها: تنظيف الخرائب ونقل الأحجار وما أشبه. بعد مرور ساعتين أتصبّب عرقاً وتغيم الدنيا أمام عينيّ، وعندما أذهب إلى الأطبّاء يقولون: لا شيء. لعلّها الأعصاب. يتحدّثون الآن كثيراً عن الأعصاب. غير أنني أعتقد أنها خطيئة أن يكون للفقراء أعصاب. فقر وأعصاب - هذا أكثر مما يتحمّلون. ولكن من المؤكّد فعلاً أن أعصابي تالفة، فقد كنت جندياً لسنوات طويلة طويلة. تسع سنوات، على ما أعتقد. ربما أكثر، لا أعلم على وجه الدقة. كنت أودّ آنذاك أن أعمل، كانت رغبتي عظيمة في أن أصبح تاجراً. كان ذلك آنذاك - لمَ التحدّث عنه الآن؟ ليست لدي الآن أقل رغبة في أن أصبح تاجراً. أحبّ الأشياء إلى قلبي أن أرقد على فراشي وأحلم. عندئذٍ أحسب كم مئة ألف يوم من أيام العمل سيقضونه في بناء ذلك الجسر أو تلك العمارة الشاهقة. ثم يخطر على بالي أنهم يستطيعون في دقيقة واحدة أن يدمّروا الجسر والعمارة. فلماذا العمل إذاً؟ أجد أنه من العبث أن نظلّ نعمل.

أعتقد أن هذا ما يدفعني إلى الجنون عندما أحمل الأحجار أو أنظّف الخرائب ليستطيعوا إعادة بناء مقهى.

لقد قلت إن السبب هو الأعصاب، ولكني أعتقد أن السبب الحقيقي هو أن الأمر يخلو من المعنى.

على كلّ حال، سيّان عندي فيمَ يفكّرون. ولكنّه فظيع ألّا تملك نقوداً أبداً. الإنسان، ببساطة، لا بدّ أن يمتلك نقوداً. لا غنى عنها. هنا عدّاد كهرباء، والإنسان لديه مصباح، ويحتاج في بعض الأحيان إلى نور طبعاً - ويضغط المرء على زرّ المصباح فتشعّ النقود ضوءاً. وحتى إذا لم تحتج إلى ضوء فلا بدّ أن تدفع إيجار العدّاد ذاته، أو الإيجار عموماً. ويبدو أن الإنسان في حاجة أيضاً إلى غرفة. في البداية سكنت في قبو - لم يكن ذلك سيّئاً، كانت لديّ مدفأة، وكنت أسرق قطع الفحم. ولكنهم طردوني من مأواي، بعثتهم الجريدة، وصوّروني، وكتبوا عني مقالة بها صورة: بؤس العائدين إلى الوطن. وكان لا بدّ أن أنتقل إلى مأوى آخر. قال لي الرجل في مصلحة الشؤون الاجتماعية إن المسألة بالنسبة له مسألة كرامة، وكان لا بدّ أن أقبل الغرفة. من الطبيعي أنني أحياناً أكسب بعض النقود أيضاً. هذا طبيعيّ. الناس يكلّفونني بشراء شيء، أو حمل الفحم ورصّه بإتقان تام في ركنٍ من أركان القبو. أرصّ الفحم بدقة وعناية بالغة، ولا أتقاضى عن ذلك إلا أجراً زهيداً. بطبيعة الحال لا أكسب كثيراً، بل لا أكسب أبداً ما يكفي لدفع الإيجار، يكفي أحياناً للكهرباء، لبضع سجائر والخبز.

عندما وقفت عند الناصية فكّرت في كل ذلك.

وتاجر السوق السوداء، الذي أصبح الآن شريفاً، كان من حينٍ إلى آخر ينظر إليّ نظرات ريبة. هذا الحلّوف يعرفني جيّداً.. عندما يتحادث اثنان يومياً لمدّة عامين تقريباً فهما بالتأكيد يعرفان كلٌّ منهما الآخر. لعلّه يعتقد أنني سأسرق منه شيئاً. لست غبيّاً إلى هذا الحدّ، أن أسرق من كشكه وهو مزدحم بالناس، حيث يمرّ في كلّ دقيقة ترام، وفي وجود شرطي يقف عند الناصية. أنا أمارس السرقة في أماكن أخرى تماماً: طبعاً أسرق أحياناً..

فحماً وخلافه. وخشباً أيضاً. مؤخّراً سرقت رغيف خبز من أحد المخابز. سار الأمر بسرعة وسهولة عجيبتين. أخذت الرغيف ببساطة وسرت خارجاً، خرجت بهدوء، ولم أبدأ في الجري إلا عند الناصية التالية. لم تعد للمرء أعصاب.

ولكنني لن أسرق في ناصية كهذه على الرغم من سهولة ذلك أحياناً.. أعصابي تلفت. أتى ترام بعد الآخر، وترامي أيضاً، وتأكّدت من رؤية إرنست وهو ينظر إليّ بطرف عينيه عندما جاء ترامي. ما زال هذا الحلّوف يعرف تماماً رقم الترام الذي أركبه!

إلا أنني رميت عقب السيجارة الأولى، وأشعلت الثانية، وبقيت واقفاً. كان بإمكاني في وقفتي هذه أن أجمع أعقاب السجائر. ولكن شخصاً كان يحوم ليلتقط تلك الأعقاب، ولا بدّ للإنسان أن يفكّر أيضاً في زملائه. ما زال هناك من يعمل جامعاً للأعقاب. ليسوا دائماً الأشخاص نفسهم. في فترة الأسر رأيت ضبّاطاً برتبة عقيد يلتقطون الأعقاب. ولكن ذلك الشخص لم يكن عقيداً. أخذت أراقبه. له طريقته. كعنكبوت يقبع في شبكته. كان يتخذ كوماً من أكوام الأنقاض ملاذاً له، وعندما يجيء ترام أو ينطلق آخر يخرج من جحره ويسير هادئاً مطمئناً بحذاء الرصيف جامعاً للأعقاب. كنت أودّ الذهاب إليه والتحدّث معه، أشعر بالانتماء إليه: لكنني أعرف أن لا فائدة من ذلك؛ هؤلاء الصِّبية لا ينطقون بكلمة.

لا أعرف ماذا جرى لي، ولكن في ذلك اليوم لم تكن لديّ أيُّ رغبة في الذهاب إلى البيت. مجرّد كلمة: البيت. كلّ شيء كان لديّ سواء، جاء ترام ثانٍ ولم أركبه، وأشعلت سيجارة أخرى. لا أعرف ماذا ينقصنا. ربما يكتشف ذلك في يومٍ ما أستاذٌ في الجامعة ويكتبه لنا في الجريدة، فهم لديهم تفسيرات لكلّ شيء. ما كنت أتمنّى سوى أن تكون لديّ أعصاب للسرقة كما كنت أفعل في الحرب. كنا نسرق آنذاك بسرعة وسهولة. آنذاك، في الحرب، كانوا يجبروننا على السرقة إذا كان هناك ما يُسرق. كانوا يكلّفوننا بالسرقة، وهكذا كنا نذهب ونسرق. أما الآخرون فكانوا لا يفعلون شيئاً سوى مشاركتنا في التهام الطعام وفي السُّكْر، بل لقد كانوا أحياناً يرسلون مما سرقنا إلى بيوتهم - كانوا يفعلون كلّ شيء، ما عدا السرقة. القميص الأبيض لا غبار عليه، وكذلك أعصابهم.

عندما رجعنا إلى الوطن كانوا قد نزلوا من الحرب، تماماً كما ينزلون من ترام هدّأ من سرعته بعض الشيء في المنطقة التي يسكنون فيها، قفزوا دون أن يدفعوا ثمن التذكرة. حادوا عن الطريق قليلاً، ثم دخلوا البيت، انظر هناك: خزانة الكتب ما زالت في مكانها.. المكتبة ليس عليها سوى بعض الغبار، الزوجة لديها بطاطس في القبو، ومخلّلات أيضاً، حضنوا زوجاتهم قليلاً، كما يقتضي الواجب، وفي الصباح التالي ذهبوا للسؤال عما إذا كانت الوظيفة ما زالت شاغرة. لم تزل الوظيفة شاغرة. كلّ شيء لا غبار عليه. بدأ الاشتراك في التأمين الصحي من جديد، وأُجريت لهم عملية تنظيف من النازية - تماماً كما تذهب للحلّاق وتسمح له بإزالة ذقنك المزعجة. وتحدّثوا عن نياشين، وإصابات جرحى، وأعمال بطولية، وأخيراً اكتشف المرء أنه لم يكن سوى إنسان شجاع أدى واجبه. بل لقد أعطوهم اشتراكاً أسبوعياً لركوب الترام مجاناً.. وهو أفضل مؤشّر على أن الأمور تسير، بالفعل، سيراً طيّباً.

أما نحن فقد استمرّ الترام يسير بنا، وانتظرنا أن تجيء محطة نعرفها حتى نخاطر بالنزول: لكن المحطة لم تأتِ. هناك من استمرّ معنا مسافة، ثم قفز بعد قليل في مكانٍ ما، متظاهراً بالوصول إلى محطته.

أما نحن فقد واصلنا السفر، وواصلنا السفر، أجرة السفر تتزايد من تلقاء نفسها، وكان علينا أيضاً أن ندفع أجرة الأمتعة الثقيلة.. تركة العدم الرصاصية التي كان علينا أن نجرّها معنا. مرَّ علينا مفتّشون لا عدد لهم، فكنّا نريهم جيوبنا الخاوية ونحن نهزّ الكتفين، لم يكن باستطاعتهم أن يلقوا بنا خارجاً؛ فالترام يسير بسرعة كبيرة -«ونحن أيضاً بشر»- ولكنّهم يسجّلون أسماءنا، ويسجّلونها، إنهم يسجّلون أسماءنا على الدوام، والترام يزيد دائماً من سرعته، الأذكياء استطاعوا القفز في أيّ مكان، عددنا آخذٌ في التناقص، وشجاعتنا ورغبتنا في النزول تقل يوماً بعد يوم. كنا قد انتوينا سرّاً أن نترك الحقائب في الترام عند وصولنا إلى المحطة الأخيرة، ندعها لمكتب المفقودات ليتولّى بيعها بالمزاد العلني، لكن المحطة لم تأتِ، وثمن التذكرة يرتفع، وسرعة الترام تتضاعف، ونظرات مفتّشي الترام تزداد صرامة.. نحن عصابة أحاطت بها الشبهات من كلّ جانب.

رميت عقب السيجارة الثالثة أيضاً، ومشيت ببطء في اتجاه المحطة. أريد الآن الذهاب إلى البيت. اعترتني دوخة، لا ينبغي على المرء أن يُكثر من التدخين ومعدته خاوية... أعرف. لم أعد أنظر إلى هناك حيث يمارس تاجر السوق السوداء، سابقاً، تجارته المشروعة الآن؛ بالتأكيد ليس لديّ حقّ أن أغضب، لقد فعلها، تمكّن من القفز سالماً، في اللحظة المناسبة، ولكنني لا أعلم، هل يجب عليه لذلك أن يصرخ في وجه طفلة ينقصها خمسة بفنكات لشراء مصّاصة؟ لعلّ هذا جزء من التجارة المشروعة - لا أعرف.

قبل أن يأتي ترامي بقليل مرَّ الزميل مرة أخرى أمام الرصيف مطمئنّ النفس ليجمع الأعقاب، مشى أمام المنتظرين.. أعرف أنهم لا يحبّون رؤية ذلك، يفضّلون ألّا توجد مثل هذه المناظر.. لكنّها موجودة.

لم أنظر إلى إرنست مرة أخرى إلا عندما ركبت الترام، ولكنّه كان ينظر بعيداً وينادي: شيكولاتة، مصّاصات، سجائر.. كلّه مُباح. لا أعرف السبب، لكن لا بدّ أن أقول إنه كان يعجبني في ما مضى أكثر، عندما لم يكن يطرد أحداً لأن خمسة بفنكات تنقصه... لكنه يشتغل الآن شغلاً حقيقياً - والشغل شغل.

خالي فْريد

خالي فْريد Fred هو الإنسان الوحيد الذي يهوِّن عليّ ذكرى سنوات ما بعد 1945. كان قد عاد من الحرب بعد ظهر يومٍ صيفيّ، يرتدي ملابس بسيطة، وليس لديه شيء سوى علبة صفيح مربوطة بحبل حول رقبته. كان يمشي بصعوبة وكأنّ أعقاب السجائر التافهة الوزن التي احتفظ بها بعناية داخل علبة صغيرة تُثقل عليه. احتضن أمي، وقبّل أختي، وقبّلني، ثم غمغم بكلمات: «خبز، نوم، تبغ»، وتدحرج على الكنبة الكبيرة. وهكذا أحتفظُ بصورته في ذاكرتي كإنسان قامته أطول من كنبتنا بكثير، مما أجبره على أن يطوي ساقيه، أو يتركهما، ببساطة، معلّقتين في الهواء. كلتا الإمكانيتين دفعتاه إلى أن يتدفّق في الحديث غاضباً عن أصل أجدادنا الذين ندين لهم بالفضل في اقتناء قطعة الأثاث الثمينة تلك. كان يطلق على ذلك الجيل الطيّب تسميات مثل «المتعفّنين الشائهين»، ثم يصبّ احتقاره على ذوقهم بسبب القماش ذي اللون الورديّ اللاذع الذي كان يكسو الكنبة. لكن ذلك لم يمنعه بأيّ حال من أن ينغمس في نومٍ لا يفيق منه.

أما أنا فقد كنت أقوم آنذاك بمهمّة شائكة لا يحسدني عليها أحدٌ بين أفراد أسرتنا الفاضلة: كنت -آنذاك في الرابعة عشرة من عمري- ألعب دور همزة الوصل الوحيدة بيننا وبين تلك المؤسسة العظيمة التي كنا نطلق عليها السوق السوداء. مات أبي في الحرب، ومعاش أمي هزيل، وهكذا كان عليّ أن أبيع كلّ يوم تقريباً أجزاء صغيرة من ممتلكاتنا التي استطعنا إنقاذها، أو استبدالها مقابل الخبز والفحم والتبغ. كان الفحم في تلك الفترة سبباً لانتهاك جسيم في مفهوم الملكية، ذلك الانتهاك الذي يطلقون عليه اليوم كلمة قاسية، هي: سرقة. وهكذا كنت أخرج كلّ يوم تقريباً إما للسرقة أو للبيع، وكانت أمي، على الرغم من إدراكها ضرورة ذلك الفعل القبيح، تنظر إليّ في الصباح عندما أذهب لأداء واجباتي المعقّدة والدموع تملأ عينيها. كنت أستبدل بوسادة رغيف خبز، فنجاناً أثرياً مقابل بعض البُرغل، أو ثلاثة أجزاء من مؤلّفات «غوستاف فرايتاغ» لقاء خمسين غراماً من البُنّ... واجبات، وإن

كنت أنفّذها بحماس رياضي، إلا أنني لم أستطع التخلّص أثناء أدائها من الشعور بالسخط والخوف. مفهوم القيم -هكذا أسماه الكبار في تلك الأيام- كان قد تزحزح عن مكانه تزحزحاً كبيراً، لذلك كانت شبهات عدم الأمانة تحوم حولي أحياناً، لأن قيمة بعض الأشياء التي أعرضها للبيع لم تكن تتطابق على الإطلاق مع تلك القيمة التي كانت أمي تعتبرها مناسبة. يا لها من مهمة مريرة أن تتوسّط بين عالمين مختلفين في القيم! لكن يبدو أنهما يتقاربان الآن.

أيقظ وصول خالي فريد فينا جميعاً شوقنا إلى يد رجلٍ قوية تساعدنا، لكنّه سرعان ما خيّب آمالنا. منذ الأيام الأولى ركبني همٌّ عظيم بسبب شهيّته للطعام. وعندما لم أتردّد في التحدّث مع أمي في هذا الشأن، رجتني أن أترك له بعض الوقت حتى «يعود إلى نفسه». نحو ثمانية أسابيع احتاجها خالي حتى عاد إلى نفسه. وعلى الرغم من كلّ اللعنات التي كان يطلقها لصغر الكنبة، فقد كان يهنأ بالنوم فوقها وهو يقضي يومه غافياً، أو منهمكاً في أن يشرح لنا بصوتٍ كلّه معاناة أيّ الأوضاع يفضّلها أثناء النوم.

أعتقد أنه كان يفضّل آنذاك وضع العدّاء قبل بدء العدو على كل الأوضاع الأخرى. كان يحب أن يرقد بعد الأكل على ظهره، ضامّاً ساقيه وهو يلتهم باستمتاع بالغ قطعة خبز كبيرة، ثم يلفّ لنفسه سيجارة بعد ذلك، ويستغرق في النوم انتظاراً لطعام العشاء. كان خالي مديد القامة، شاحباً، وعلى ذقنه ندبة على شكل إكليل جعلت وجهه يشبه تمثالاً مخدوشاً من المرمر. كنت أحبّه جداً على الرغم من أن شهيّته واحتياجه للنوم ظلّا مصدر قلقي. كان خالي هو الإنسان الوحيد الذي كنت أستطيع على الأقل أن أتناقش معه بخصوص السوق السوداء دون أن نتشاجر. يبدو أنه كان على علمٍ بالخلاف القائم بين عالمَي القيم.

لم يستسلم أبداً لإلحاحنا المستمر أن يحكي لنا عن الحرب مُدّعياً بأن الأمر لا يستحقّ. الشيء الوحيد الذي كان يقصّه علينا بين الحين والآخر هو ما حدث له أثناء كشف اللياقة الطبّي، الذي اقتصر في معظمه على الأمر الذي أصدره إنسان يرتدي الزيّ العسكري إلى خالي فريد بأن يتبوّل في أنبوبة زجاجية - وهو أمر لم يكن باستطاعة خالي أن يلبّيه على

الفور، وبذلك خيّم سوء الطالع على مستقبله العسكريّ منذ البداية. كان يدّعي أن الاهتمام الفائق ببوله من جانب الرايخ الألماني(*****) قد ملأه بشكٍّ هائل، ثم تأكّدت شكوكه خلال سنوات الحرب الستّ على نحو يبعث على القلق.

كان يعمل قبل الحرب محاسباً، وبعد أن انقضت أول أربعة أسابيع على كنبتنا، طالبته أمي بوداعة أخوية أن يسأل عن أخبار شركته القديمة. هذا الطلب حوّله خالي برفق إليّ. كلّ ما استطعت التوصّل إليه هو كومة من الأنقاض ارتفاعها نحو ثمانية أمتار لم يبقَ فيها حجرٌ على آخر، عثرت عليها في أحد أحياء مدينتنا المدمّرة بعد مسحٍ مجهد استمرّ لمدّة ساعة. تلقّى خالي فريد نتائج تحرّياتي باطمئنانٍ تامّ. رجع بظهره إلى الوراء، ولفَّ لنفسه سيجارة، وأومأ لأمي منتصراً راجياً إياها أن تبحث عن أشيائه. في أحد أركان غرفة نومنا كان هناك صندوق أُحكم إغلاقه بالمسامير، فتحناه بالشاكوش والكمّاشة وكلّنا ترقّب. كان كلّ ما وجدناه: 20 رواية متوسطة الحجم والمستوى، ساعة جيب ذهبية اللون علاها التراب لكنّها سليمة، زوجان من حمّالات البنطال، كرّاسات، شهادة الدبلوم الصادرة عن الغرفة التجارية، ودفتر توفير به 1200 مارك. أعطوني الدفتر لأحضر النقود، والأشياء الأخرى لأبيعها، بما فيها شهادة دبلوم الغرفة التجارية التي لم تجد مَن يشتريها، لأن اسم خالي فريد كان مكتوباً بالحبر الأسود. وهكذا ارتحنا لمدة أربعة أسابيع من كلّ هموم الحصول على خبز وتبغ وفحم، الأمر الذي خفّف عني كثيراً، خاصة أن كل المدارس كانت قد فتحت أبوابها من جديد داعيةً التلاميذ إليها؛ لذا طالبوني أن أستكمل تعليمي. وما زلت حتى يومنا هذا -على الرغم من أنني أتممت تعليمي منذ زمن بعيد- أحتفظ بذكريات رقيقة لذلك الحساء الذي كانوا يوزّعونه، لا سيما أننا كنا نحصل على هذه الوجبة الإضافية دون أي عناء يُذكر، وهو ما أضفى على المرحلة التعليمية كلّها جوّاً بهيجاً عصريّاً.

لكن الحدث الأعظم في تلك الفترة كان المبادرة التي قام بها خالي، بعد انقضاء أكثر من ثمانية أسابيع على عودته الميمونة إلى أرض الوطن. نهض خالي من فوق الكنبة في صباح يوم من أواخر الصيف، وانهمك في حلاقة ذقنه بطريقة أصابتنا بالرعب، ثم طلب ملابس نظيفة، واستعار درّاجتي واختفى. كانت عودته المسائية مصحوبة بضجيج هائل ورائحة

نبيذ قوية - الرائحة فاحت من فم خالي، أما الضجيج فقد انبعث من نصف دستة من الدلاء القصديرية التي كان خالي يربطها معاً. لم تتبخّر حيرتنا إلا عندما عرفنا عزمه أن يبعث تجارة الزهور في مدينتنا الخراب إلى الحياة مرة أخرى. أمي -التي ملأتها الشكوك تجاه عالم القيم الجديد- هاجمت المشروع مدّعية أنه ليس هناك احتياج للزهور. لكنّها كانت مخطئة.

كان صباحاً يستحقّ الذكر، عندما ساعدنا خالي في حمل الدلاء المليئة بالزهور اليانعة إلى محطة الترام حيث بدأ تجارته. وما زلت حتى اليوم أحتفظ في ذاكرتي بمنظر زهور الداليا الصفراء والحمراء، والقرنفل المُنَدّى. ولن أنسى أبداً كيف بدا خالي رائع المنظر وهو يقف وسط الأشكال الرمادية وأكوام الأنقاض، ثم بدأ يصيح على زهوره بصوتٍ رنّان.

لست بحاجة إلى التحدّث عن تطوّر تجارته: لقد حقّقت أرباحاً فلكية. ما كادت تنقضي أربعة أسابيع حتى كان مالكاً لثلاث دستات من الدلاء القصديرية، ثم امتلك فرعين، وبعد مضيّ شهر أصبح من دافعي الضرائب. بدا لي وجه المدينة وكأنه قد تغيّر بأكمله: أكشاك الزهور بدأت تغزو النواصي، ولم يعد بالإمكان تلبية كلّ الطلبات. زاد عدد الدلاء التي اشتراها خالي، وكذلك الأكشاك والعربات الخشبية التي كلّف النجّارين بصنعها.

على كلّ حال، لم يزوّدنا خالي بالزهور اليانعة فحسب، وإنما أيضاً بالخبز والفحم. واستطعت أن أتوقّف عن نشاطي في البيع والشراء، الأمر الذي ساهم كثيراً في تماسك أخلاقياتي. لقد استقرّت أحوال خالي فريد منذ مدة طويلة: فروعه ما زالت مُزدهرة، يمتلك سيارة، وأنا وريثه المنتظر؛ لذلك كلّفوني بأن أدرس الاقتصاد حتى أستطيع -قبل أن ينتقل الإرث لي- تقديم الاستشارة الضرائبية للشركة.

وعندما أراه اليوم، إنساناً ضخماً يجلس خلف مقود سيارته الحمراء، أشعر بغرابة شديدة أن شهيّته للطعام كانت تسبّب لي في وقتٍ ما من حياتي أرقاً وسهاداً.

(*****) كلمة الرايخ تعني أصلاً المملكة، وهي تشير هنا إلى ألمانيا بعد تولّي هتلر الحكم فيها (1933) وحتى انتهاء الحرب العالمية الثانية (1945)، فقد كان يُطلق عليها «الرايخ الثالث». [م]

ميزان آل باليك

في وطن جدّي كان معظم الناس يرتزقون من العمل في مصنع الكتّان. منذ خمسة أجيال وهم يستنشقون الغبار المتصاعد من سيقان الكتّان المكسورة، مستسلمين بذلك للانتحار البطيء. كانوا صابرين بشوشين، يأكلون جبن الماعز والبطاطس، وبين الحين والآخر يذبحون أرنباً؛ وفي المساء يغزلون ويشتغلون بالإبرة في الدار، ويغنّون، ويشربون شاي النعناع. كانوا سعداء. أثناء النهار يكسرون سيقان الكتّان في ماكينات عتيقة، لا حول لهم ولا قوة أمام الغبار والحرارة المنبعثة من أفران التجفيف. لم يكن في دارهم إلا سريرٌ وحيد في تجويف مخصوص بالجدار، لا ينام عليه سوى الأب والأم، أما الأطفال فكانوا يفترشون الدكك حول السرير. في الصباح تتشبّع الدار برائحة حساء لا يقيم الأود، أما في أيام الآحاد فكانوا يأكلون الفطير. في أيام الأعياد تتورّد وجوه الأطفال فرحةً عندما تتخلّى القهوة الرخيصة المصنوعة من ثمار شجر البلّوط عن قتامتها شيئاً فشيئاً بفعل الحليب الذي كانت تصبّه الأمّ باسمةً في وعاء القهوة.

في الصباح الباكر يذهب الآباء والأمهات إلى المصنع تاركين العمل المنزلي للأطفال: يكنسون الغرف، ويرتّبونها، ويغسلون الأطباق، ويقشّرون البطاطس - تلك الحبات الصفراء الثمينة التي كان عليهم أن يُظهروا لآبائهم قشرتها الرقيقة حتى ينفوا عن أنفسهم أيّ مظنّة تبذير أو استهتار.

بمجرّد عودة الأطفال من المدرسة كان عليهم أن يذهبوا إلى الغابة لكي يجمعوا، وفقاً للموسم، عيش الغراب(******) أو الأعشاب الطبيعية: الجويسئة العطرية، والزعتر، والكراويا، والنعناع، وأيضاً القمعية الأرجوانية؛ وفي الصيف، بعد حشّ الحشائش من المراعي الجدباء، كانوا يجمعون الزهور البرّية. كانوا يحصلون على بفنكٍ واحد عن كلّ كيلو من زهور الحشائش، التي تُباع بعد ذلك في صيدليات المدينة للسيّدات ضعيفات الأعصاب مقابل عشرين بفنكاً للكيلو. عيش الغراب هو الذي كان ثميناً، عن الكيلو الواحد كانوا

يحصلون على عشرين بفنكاً، أما في محلّات المدينة فيبلغ سعر الكيلو ماركاً وعشرين بفنكاً. في الخريف، عندما تدفع الرطوبة عيش الغراب من جوف الأرض، كان الأطفال ينتشرون زاحفين في أعماق ظلمات الغابة الخضراء، حيث لكل عائلة تقريباً أماكن خاصة لجمع عيش الغراب يبوح بها كلّ جيل همساً للجيل التالي.

كانت الغابات ملكاً لآل باليك، وكذلك مصنع الكتّان. كانوا يعيشون في قصر بقرية جدّي، وهناك، بجوار الحجرة التي يشترون فيها الحليب من الفلّاحين، كانت لزوجة كبير العائلة غرفة صغيرة يزِنون فيها عيش الغراب والأعشاب وزهور الحشائش ويشترونها. في تلك الغرفة استقرّ ميزان آل باليك على المائدة: ميزان عتيق منمّق ومزخرف بالبرونز المطليّ بالذهب، وأمامه وقف أجداد جدّي وهم أطفال، وفي أيديهم الصغيرة المتسخة سلالٌ يملؤها عيش الغراب وأكياس ورقية فيها زهور حشائش، ينظرون في ترقّب إلى الأكيال التي تضعها السيّدة باليك على الكفّة حتى يقف المؤشّر المتأرجح على الخط الأسود تماماً، خطّ العدالة الرفيع الذي يُعاد طلاؤه في كلّ عام . بعد ذلك تتناول السيّدة باليك الدفتر الضخم المبطّن بجلدٍ بنّيّ وتسجّل الوزن، وتدفع الثمن في صورة عملات معدنية من فئة البفنك أو الغروشة؛ ونادراً، نادراً للغاية ما تدفع ماركاً كاملاً. عندما كان جدّي طفلاً، كان هنالك برطمان زجاجي كبير فيه بونبون مُزّ، يبلغ ثمن الكيلو منه ماركاً واحداً، فإذا كانت السيّدة باليك، الآمرة الناهية في الغرفة الصغيرة، منشرحة الأسارير، فإنها تُدخِل يدها في البرطمان وتعطي بونبونة لكلّ طفل؛ وتتورّد وجوه الأطفال فرحةً، كما تتورّد في أيام الأعياد عندما تصبّ الأم الحليب في وعاء القهوة، وتتخلّى القهوة شيئاً فشيئاً عن قتامتها حتى تصبح في لون ضفائر البنات الشقراوات.

من القوانين التي فرضها آل باليك على القرية قانونٌ يمنع اقتناء الموازين في المنازل. لقد صدر هذا القانون منذ أمدٍ موغل في القدم، حتى إنه لم يعد هناك أحد يتساءل متى ولماذا سُنّ هذا القانون؟! كان على الجميع احترام ذلك القانون؛ فمَن يخالفه، يُطرَد من مصنع الكتّان ولا يجد من يأخذ منه عيش الغراب أو الزعتر أو زهور الحشائش؛ بل لقد بلغت سطوة آل باليك حدّاً جعل من المستحيل أن يجرؤ أحد حتى من القرى المجاورة أن يمنح

ذلك المخالف للقانون فرصةَ عمل أو أن يشتري منه الأعشاب. ولكن منذ أن بدأ أجداد جدي وهم أطفال صغار يجمعون عيش الغراب ويبيعونه، حتى تكتسب المشويّات والعجائن في مطابخ أثرياء مدينة براغ نكهة محبّبة، لم يُفكّر أحدٌ في التعدّي على هذا القانون. الدقيق يُكال، والبيض يُعدّ، والمنسوجات تُقاس بالأذرع، أما في الأشياء الأخرى فإن ميزان آل باليك العتيق المزخرف بالبرونز المطليّ بالذهب كان يوحي بالدقّة، لذا وضعت خمسة أجيال ثقتها في المؤشّر الأسود المتأرجح لوزن ما جمعوه في الغابة بحماسٍ طفوليّ.

كان من بين هؤلاء المسالمين مَن يحتقر القانون بالطبع، كصائدي الحيوانات البرّيّة في غابات آل باليك دون تصريح، الذين كانوا يشتهون أن يكسبوا في ليلة أكثر مما يستطيعون أن يكسبوا الشهر كلّه في مصنع الكتّان. ولكن حتى بين هؤلاء لم يبدُ أن أحداً قد راودته فكرة أن يشتري ميزاناً أو أن يصنعه. كان جدي أول من تجرأ ووضع عدالة آل باليك تحت الاختبار: آل باليك الذين يسكنون القصور، ويمتلكون عربتين تجرّهما الخيل، ويتبرّعون دائماً لأحد أبناء القرية بمصاريف الدراسة في كلّيّة اللاهوت بجامعة براغ، ويستضيفون القسّ كلّ أربعاء ليلعب الورق معهم؛ آل باليك الذين سيزورهم رئيس مركز الشرطة في مستهلّ العام الجديد بعربته المزيّنة بشعار القيصر، والذين سينعم عليهم القيصر في مستهل عام 1900 بلقب «النبيل».

تميّز جدّي بالاجتهاد والذكاء، فكان يزحف في الغابة إلى أبعد مما كان أطفال قبيلته يفعلون. لقد تغلغل حتى وصل إلى الأدغال التي يسكنها -كما تقول الأساطير- العملاق بيلغان الذي يحرس الكنز المخبّأ هناك. لكن جدّي لم يكن يخشى العملاق بيلغان، فكان يتسلّل، منذ كان صبيّاً، إلى أعماق الأدغال ويأتي بغنيمة عظيمة من عيش الغراب، بل إنه وجد ذات مرة أنواعاً غالية منه، كالكمأ الذي ينمو تحت الأرض، الذي دفعت السيّدة باليك ثلاثين بفنكاً عن كلّ كيلو منه. كان جدّي يسجّل كلّ ما يبيعه لآل باليك على ظهر ورقة من أوراق تقويم السنة: كلّ رطل من عيش الغراب وكلّ غرام من الزعتر، وبخطّه الطفولي كتب على الهامش الأيمن مقدار ما حصل عليه مقابل ذلك: لقد سجّل على هذه الورقة كلّ بفنكٍ حصل عليه منذ بلغ الخامسة وحتى الثانية عشرة من عمره، أي حتى عام 1900. في ذلك

العام أهدى آل باليك كل عائلة في القرية ربع رطل من البنّ الحقيقيّ البرازيليّ الغالي، وذلك احتفالاً بإنعام القيصر عليهم برتبة «النبيل»، وقُدِّمت أيضاً البيرة المجانية والتبغ للرجال، وفي القصر أُقيم احتفالٌ كبير، وازدحم الطريق العريض الذي تحفّ به أشجار الحور، والمؤدّي من البوّابة إلى القصر، بالعربات التي تجرّها الخيل.

قبل الاحتفال بيوم كانوا قد وزّعوا البنّ في الغرفة الصغيرة حيث يتربّع منذ نحو مئة عام ميزان آل باليك، الذين يُسَمّون الآن باليك فون بيلغان؛ لأن العملاق بيلغان، كما تروي الأسطورة، كان يقبع في قصره الكبير في المكان الذي بنى فيه آل باليك مقرّهم الحالي.

كثيراً ما حكى لي جدّي عن ذهابه بعد المدرسة إلى القصر ليُحضر البُنّ لأربع عائلات: آل سيش، وآل فايدلير، وآل فولا، وعائلته هو: آل بروشر. كثُر العمل في عصر آخر أيام العام، ما بين تزيين الغرف، وخبز الكعك، لذلك لم تكن العائلات تريد أن تستغني عن أربعة صبيان وإرسالهم فرادى إلى القصر حتى يُحضر كلٌّ منهم ربع رطلٍ من البُنّ. وهكذا جلس جدي في حجرة الميزان على الدكة الخشبية الصغيرة، والخادمة غرترود تحصي أمامه أربعة أكياس بداخل كلٍّ منها ثُمن كيلو من البنّ. راح يسدّد نظراته على الميزان الذي استقرّ على كفّته اليسرى حجر وزنه نصف كيلو. كانت السيّدة باليك مشغولة بالتحضير للعيد، وعندما أرادت غرترود أن تمدّ يدها في برطمان البونبون المُز لتعطي جدي واحدة، اكتشفت أنه فارغ. مرة كل عام كانوا يملؤون البرطمان عن آخره بكيلو من هذا البونبون الذي يبلغ سعره ماركاً. ضحكت غرترود قائلة: «انتظر، سأملأ البرطمان!». وظلّ جدي واقفاً أمام الميزان، ومعه أكياس البنّ الأربعة التي يزن كلٌّ منها ثُمن كيلو، والتي وُزنت وغُلِّفت بالمصنع. رأى جدي على إحدى كفتي الميزان الحجر الذي يزن نصف كيلو، فأخذ أكياس البُنّ ووضعها على كفة الميزان الفارغة، وخفق قلبه بقوة حينما رأى مؤشّر العدالة الأسود يبقى معلّقاً إلى يسار الخط، وأن الكفة التي تحوي الأثقال ظلّت هابطة في مكانها، وأن نصف كيلو البنّ يسمو بهامته في الهواء؛ خفق قلبه خفقاناً أشدّ مما لو كان قد رقد في الغابة منتظراً العملاق بيلغان وراء شجيرة. بحث جدي في جيبه عن حصوات الزلط التي يحملها معه دائماً لقذفها بالنبلة لاصطياد العصافير التي تنقر أوراق الكرنب الذي تزرعه أمه، ووضع ثلاث.. أربع..

خمس حصوات من الزلط بجانب أكياس البنّ حتى نهضت الكفة الأخرى ومعها الحجر الذي يزن نصف كيلو، واستقر المؤشّر أخيراً على الخط الأسود تماماً. تناول جدي أكياس البنّ من الميزان، ولفَّ حصوات الزلط في منديله؛ وعندما عادت غرترود بالكيس الكبير الذي يحتوي على كيلو من البونبون المُز، الذي سيكفي لمدة عام، والذي سيجعل وجوه الأطفال تتورّد فرحة، وعندما أفرغت غرترود البونبون في البرطمان الزجاجي مُحدثة صلصلة، كان الصبي الصغير الشاحب الوجه يقف في مكانه وكأنّ شيئاً لم يكن. لم يأخذ جدي سوى ثلاثة أكياس بنّ، ونظرت غرترود في دهشة وذعر إلى الصبي الشاحب الوجه الذي ألقى بقطعة البونبون على الأرض، ثم داسها صارخاً: «أريد التحدّث مع السيّدة باليك!».

فردّت غرترود: «السيّدة باليك فون بيلغان من فضلك!».

- طيّب، السيّدة باليك فون بيلغان.

إلّا أنّ غرترود سخرت منه. رجع الصبي في الظلام إلى القرية، وأعطى كيس بنّ لكل من عائلة سيش وعائلة فايدلير وعائلة فولا، ثم ادّعى أنه لا بدّ أن يذهب إلى القسّ.

لكنه انطلق في أعماق الليل ومعه حصوات الزلط الخمس ملفوفة في منديله. مشى طويلاً حتى وجد شخصاً يمتلك ميزاناً، أو بالأحرى سُمح له بامتلاك ميزان؛ كان يعلم أنه لم يكن هناك ميزان في قرية بلاوغاو أو برناو، فاخترق القريتين حتى وصل بعد مسيرة ساعتين إلى المدينة الصغيرة ديلهايم حيث يسكن الصيدليّ هونيش. تصاعدت من المنزل روائح فطير ساخن، وفاحت من فم هونيش -عندما فتح الباب للصبي الذي كاد يتجمّد برداً- رائحة النبيذ الساخن، وبين شفتيه النحيفتين لاح السيجار المبلّل. أمسك الصيدليّ بيدي الصبي الباردتين لحظة، ثم سأله: «هه، هل ساءت حالة رئة أبيك؟».

- لا، أنا لم أحضر من أجل أدوية... كنت أريد...

وفتح جدي منديله مُخرجاً الحصوات الخمس، ومدَّ يده بها إلى هونيش قائلاً: «كنت أريد أن أعرف كم يبلغ وزن هذه الأشياء».

وتطلّع خائفاً إلى وجه هونيش، وعندما لم يقل الأخير شيئاً، ولم يغضب، وأيضاً لم يوجّه إليه أيّ سؤال، قال جدّي: «هذا ما ينقص العدالة». لم يشعر جدّي إلا حينئذٍ، عندما دخل الغرفة الدافئة، أن الماء قد تسلّل إلى قدميه. لقد نفذ الثلج عبر الحذاء رديء الصنع، وأخذ الثلج الذي تساقط عليه من فوق غصون الأشجار في الغابة يذوب. كان منهكاً جائعاً، ثم شرع فجأة في البكاء لأنه تذكّر عيش الغراب الكثير والأعشاب والزهور التي وُزنت على الميزان، ذلك الميزان الذي تنقص عدالته بمقدار وزن خمس حصوات. وعندما نادى هونيش امرأته وهو يهزّ رأسه ماسكاً بالحصوات في يده، فكّر جدّي في آباء آبائه وأجداده، الذين أُجبروا كلّهم على وزن عيش الغراب والزهور على ذلك الميزان، وشعر بوطأة ظلم هائل، وبدأ نحيبه يشتدّ، فجلس، دون أن يأذن له أحدٌ بذلك، على أحد الكراسي في غرفة هونيش؛ ولم يلتفت إلى الفطائر أو إلى فنجان القهوة الساخنة الذي وضعته السيّدة هونيش الطيّبة البدينة أمامه، ولم يتوقّف عن البكاء حتى عاد هونيش نفسه من الصيدلية قائلاً لزوجته وهو يهزّ الحصوات في يده: «55 غراماً بالضبط».

سار جدّي عبر الغابة لمدّة ساعتين، تركهم يضربونه في المنزل، صمت عندما سُئل عن البنّ الذي لم يحضره، لم ينطق بكلمة، وأخذ يحسب طيلة المساء على ورقته، التي سجّل عليها كلّ شيء، ما الذي ورّده للسيّدة باليك فون بيلغان حتى الآن؛ وعندما دقّت الساعة معلنة انتصاف الليل، وسُمعت فرقعة الصواريخ النارية من ناحية القصر، وتعالت في جميع أنحاء القرية صيحات الابتهاج وخشخشة الصلاصل، وعندما تبادل أفراد الأسرة القبلات والأحضان كسر جدي صمت العام القادم قائلاً: «آل باليك يدينون لي بمبلغ قدره ثمانية عشر ماركاً واثنين وثلاثين بفنكاً».

ثم تذكّر ثانيةً عدد الأطفال الغفير في القرية، وأخاه فريتس الذي جمع كمية كبيرة من عيش الغراب، وأخته لودميلا، تذكّر مئات الأطفال الذين جمعوا كلّهم عيش الغراب

والأعشاب والزهور وباعوها لآل باليك، ولم يبكِ هذه المرة، وإنما حكى لأبويه وإخوته عن اكتشافه.

عندما دخل آل باليك فون بيلغان الكنيسة لحضور القداس الاحتفالي في أول أيام السنة، والشعار الجديد -عملاق قابع تحت شجرة تنوب- يزيّن عربتهم بلونيه الأزرق والذهبي، أرسلوا النظر إلى وجوه الحاضرين الجامدة الشاحبة المحملقة فيهم. لقد توقّعوا أن يروا شوارع القرية مزيّنة بالزهور، وأن يسمعوا في الصباح الموسيقا تُعزف إكراماً لهم، وأن تتعالى صيحات التهليل والفرح؛ لكنّ القرية بدت وكأنها خلت من أهلها عندما انطلقت بهم العربة في طرقها، وفي الكنيسة التفتت إليهم وجوه الحاضرين التي علاها الشحوب والصمت والتحفّز، وعندما اعتلى القسُّ المنبر ليلقي عظة الاحتفال، أحسّ ببرودة الوجوه التي كانت تشعّ في السابق هدوءاً وسلاماً. ألقى عظته المفكّكة بجهدٍ جهيد، ثم رجع إلى الهيكل وهو يتصبّب عرقاً. ولمّا غادر آل باليك فون بيلغان الكنيسة بعد انتهاء القداس، أخذوا طريقهم بين وجوه أهل القرية الصامتة الشاحبة المصطفّة على الجانبين. لكن السيّدة آل باليك الصغيرة ظلّت واقفة عند دكك الأطفال في الأمام باحثةً عن وجه جدّي -فرانتس بروشر- الشاحب الصغير، وسألته في الكنيسة: «لماذا لم تأخذ البنّ معك إلى أمك؟».

فوقف جدّي مجيباً: «لأنك لا تزالين مدينةً لي بما يساوي ثَمن خمسة كيلو من البنّ».

وأخرج من جيبه الحصوات الخمس، ومدَّ بها يده إلى السيّدة الصغيرة وقال: «هذا ما ينقص عدالتك: 55 غراماً في كلّ نصف كيلو».

وقبل أن تستطيع السيّدة أن تقول شيئاً، أخذ الرجال والنساء في الكنيسة ينشدون ترنيمة: «عدالة الأرض يا إلهنا حكمت عليك بالموت».

وبينما كان آل باليك في الكنيسة، تسلّل فيلهلم فولا، صائد الحيوانات البرّيّة، إلى الغرفة الصغيرة الموجود فيها الميزان وسرقه، ومعه الدفتر الضخم المبطّن بالجلد الذي سُجِّل فيه

كلّ كيلو من عيش غراب، وكلّ كيلو من زهور الحشائش، وكلّ ما اشتراه آل باليك من أهل القرية. وطوال عصر أول أيام العام الجديد، جلس رجال القرية في دار أجدادي وأخذوا يحسبون عُشر ما تمّ شراؤه من كلّ شيء، وفيما هم يحسبون، وقبل أن يفرغوا من جمع كلّ المبالغ التي وصلت حتى تلك اللحظة آلاف الماركات، هجم رجال الشرطة، الذين أرسلهم مأمور القسم، مقتحمين دار أجدادي وهم يطلقون رصاص بنادقهم ويطعنون بخناجرهم، ثم انتزعوا عنوةً الميزان والدفتر. أثناء ذلك قتلوا أخت جدّي الصغيرة: لودميلا، وجرحوا بعض الرجال، وقتلَ الصيّاد فيلهلم فولا أحدَ رجال الشرطة، بطعنةٍ نافذة.

انتشر التمرّد، ليس فقط في قريتنا وإنما أيضاً في بلاوغاو وبرناو، ولمدّة أسبوع تقريباً توقّف العمل تماماً في مصانع الكتّان. وازدحمت القرية برجال الشرطة الذين هدّدوا الرجال والنساء بالسجن، وأجبرَ آل باليك القسّ على عرض الميزان في المدرسة أمام الجميع، وأن يبرهن على دقّة مؤشّر العدالة. وعاود الرجال والنساء عملهم في كسر سيقان الكتّان، ولكن لم يذهب أحدٌ إلى المدرسة لمشاهدة القسّ: وقف هناك وحيداً تماماً، شاعراً بالعجز والحزن، ومعه المكاييل الحجرية والميزان وأكياس البنّ.

وعاد الأطفال يجمعون عيش الغراب، ويجمعون الزعتر والقمعية الأرجوانية والزهور. ولكن كلّ يوم أحد كان أهل القرية يرنّمون في الكنيسة بمجرّد دخول آل باليك: «عدالة الأرض يا إلهنا حكمت عليك بالموت»، حتى أمر مأمور المركز أن تُقرَع الطبول في كلّ القرى معلنةً منع إنشاد هذه الترنيمة.

كان على عائلة جدي أن تهجر القرية، وقبر ابنتهم الصغيرة التي واروها في التراب بالأمس القريب. كسبوا قوتهم بجدل سلال الخيزران، ولم يطيلوا البقاء في مكانٍ ما، لأنه كان يؤلمهم رؤية مؤشّر العدالة الظالم في كلّ مكان. تنقّلوا من قرية إلى قرية وراء عربتهم التي كانت تزحف بطيئة على الطريق الزراعي، مصطحبين عنزتهم النحيفة. ومَن كان يمرّ بالعربة كان بإمكانه أن يسمعهم أحياناً وهم يغنّون في الداخل: «عدالة الأرض يا إلهنا حكمت عليك بالموت». ومن كانت لديه الرغبة في الاستماع، كان يستمع إلى حكاية آل

باليك فون بيلغان الذين نقصت عدالتهم بمقدار العُشر. ولكنّهم لم يجدوا أحداً يستمع إليهم إلا نادراً.

(******) فطر مثمر ينمو فوق الأرض، ينمو بكثرة في الغابات ومناطق الأعشاب. [م]

الضاحك

كلّما سألوني عن مهنتي، تنتابني الحيرة ويحمرّ وجهي وأتلعثم... أنا المعروف بالثقة بالنفس. أحسد الذين يستطيعون القول: أنا بنّاء، كما أحسد الحلّاقين والمحاسبين والمؤلّفين على بساطة إجاباتهم؛ فكلّ هذه المهن تشرح نفسها بنفسها ولا تتطلّب تفسيرات مطوّلة. أما أنا فمجبَرٌ على أن أجيب عن هذه الأسئلة قائلاً: أنا ضاحك. هذا الاعتراف يتطلّب اعترافات أخرى، لأنني يجب أن أجيب عن السؤال التالي أيضاً، وهو: أتتعيّش من ذلك؟ بردٍّ يطابق الحقيقة، وهو: نعم. أنا أتعيّش فعلاً من ضحكي، بل وأتعيّش منه بيسر، فضحكي -بالتعبير التجاري- مطلوب. وأنا ضاحك مجيد، ضاحك متدرّب، لا أحد يضحك مثلي، ولا أحد غيري يتقن الفروق الدقيقة في فنّي. كنت لفترة طويلة -وهرباً من التفسيرات الثقيلة- أعتبر نفسي ممثّلاً، ولكن قدراتي الإيمائية والكلامية محدودة إلى الدرجة التي تبدو معها هذه التسمية غير مطابقة للحقيقة، وأنا أحبُّ الحقيقة، والحقيقة هي: إنني ضاحك. لستُ مهرّجاً ولا ممثّلاً كوميديّاً، لا، أنا لا أُبهج الناس، وإنما أُجسّد البهجة ذاتها: فأنا أضحك كإمبراطور روماني، أو كتلميذ مرهف الحسّ في المرحلة الثانوية، أجيد ضحك القرن السابع عشر، كما أعرف كيف يكون ضحك التاسع عشر، وإذا اقتضت الضرورة فأنا أضحك كلّ القرون، وكلّ الطبقات الاجتماعية، وكلّ الأعمار. ببساطة: لقد تعلّمت ذلك، تماماً كما يتعلّم المرء كيف يركّب نعلاً للحذاء. في صدري تكمن طريقة ضحك الأميركيّ، وضحك الإفريقيّ... الضحك الأبيض والأحمر والأصفر... ولقاء مكافأة مُجزية أُطلق هذه الضحكات وفقاً لتعليمات المُخرج.

الاستغناء عني أصبح مستحيلاً، فأنا أضحك على أسطوانات وعلى شرائط، وقد أصبح مُخرجو التمثيليات الإذاعية يعاملونني باحترام. وأنا أستطيع أن أضحك بكآبة، وباعتدال، وبهستيرية، أضحك كمحصّل ترام أو كصبيّ بقّال، ضحك الصباح والمساء، الضحك الليليّ

وضحك ساعة الغروب، باختصار: لديّ القدرة على الضحك، حيثما وكيفما يجب أن يضحك المرء.

ستصدّقونني عندما أقول لكم إن مثل هذه المهنة مُجهِدة، وخاصة وأنا -وهذا هو ما يميّزني- أتقن الضحك المُعدي كذلك، وبذلك أصبح من المستحيل أيضاً أن يستغني عني الممثّلون الكوميديون من الدرجة الثالثة والرابعة الذين يرتعدون ارتعاداً عند أداء فقراتهم. يكاد لا يمرّ مساء دون أن أكون جالساً في مسارح المنوّعات، كطريقة أرقى من الهتاف المأجور، لكي أضحك بطريقة مُعدية في مواطن الضعف من البرنامج. ويجب أن أنفّذ العمل في غاية الدقة: فضحكاتي العارمة المجلجلة يجب ألّا تنطلق قبل أوانها، ولا بعد أوانها أيضاً، بل في اللحظة المناسبة - عندئذٍ تنفجر ضحكاتي وفقاً للبرنامج، ويضجّ الجمهور كلّه بالضحك معي، وتُنقَذ الفقرة.

أما أنا فأتسلّل منهك القوى إلى مكان تعليق الملابس، وأرتدي معطفي سعيداً بأنني أخيراً قد انتهيت من عملي. وفي المنزل أجد غالباً برقيّاتٍ في انتظاري: «في أشدّ الحاجة لضحكك. التسجيل الثلاثاء». بعدئذٍ أكون قابعاً في القطار السريع، ذي التدفئة العالية جداً، نادباً حظّي.

كلّكم ستدركون أنني بعد انتهائي من العمل، أو في إجازاتي، أكون قليل الميل إلى الضحك: فاللّبّان يسعد عندما ينسى البقرة، والبنّاء عندما ينسى المِلاط؛ النجّارون غالباً ما يكون لديهم في بيوتهم أبوابٌ لا تُغلق أو أدراجٌ لا تُفتح إلا بصعوبة بالغة. صنّاع الحلوى يحبّون الخيار المخلّل، والجزّارون يعشقون الحلوى، والخبّاز يفضّل السجق على الخبز، مصارعو الثيران يعشقون مداعبة الحمام، والملاكمون تمتقع وجوههم إذا ما أصيب أحد أطفالهم بنزيف في الأنف: كلّ هذا أدركه، لأنني لا أضحك بعد انتهائي من العمل أبداً. أنا إنسان جادّ جدّيّة الموت، والناس يعتبرونني متشائماً، وقد يكون لديهم حقّ.

في السنوات الأولى لزواجنا كانت زوجتي تقول لي مراراً: اضحك ولو مرّة! ولكن بمرور الأيام اتضح لها أنني لا أستطيع أن ألبّي هذه الرغبة، فالجدّيّة العميقة تجعلني سعيداً، لأنها

تُريح عضلات وجهي المرهقة ونفسي المجهدة. أجل، وحتى ضحك الآخرين يجعلني عصبيّاً لأنّه يذكّرني، بشدّة، بمهنتي. وهكذا نحيا حياة زوجية هادئة يغمرها السلام، لأن زوجتي قد نسيت الضحك هي الأخرى. من آنٍ إلى آخر أضبطها مبتسمة، عندئذٍ أبتسم أنا أيضاً. بصوت خافت نتبادل أحاديثنا، فأنا أكره ضجيج صالات المسارح. أكره الضجيج الذي يسود في بعض الأحيان حجرات التسجيل. والذين لا يعرفونني يعتبرونني إنساناً منغلقاً، وقد أكون كذلك لأنني مُجبَر على فتح فمي مراراً لأضحك.

بملامح جامدة أحيا حياتي. لا أسمح لنفسي إلا بين الحين والآخر بابتسامة بسيطة، وغالباً ما يأخذني التفكير بعدها: هل ضحكت؟ أعتقد: لا. وإخوتي يحكون عني أيضاً أنني كنت دائماً صبيّاً جادّاً.

وهكذا أضحك بأشكال مختلفة، لكنّي لا أعرف لنفسي ضحكةً خاصّة.

موت إلزه باسكولايت

كان قبو البيت الذي سكنّا فيه قبل سنوات بعيدة مؤجّراً لتاجرٍ يُدعى باسكولايت. في ممرّات القبو كانت تتناثر أقفاص البرتقال، ومن جنباته كانت تفوح رائحة الفاكهة المتعفّنة التي يضعها باسكولايت جانباً ليحملها جامعو القمامة. من خلف عتمة اللوح الزجاجي المُصَنْفَر كنّا نسمع في الغالب صوته العريض ذا اللكنة الألمانية الشرقية وهو يلعن الزمان الرديء. لكن في أعماق قلبه كان باسكولايت إنساناً بشوشاً؛ كنا نعرف تماماً -وهو ما لا يستطيع معرفته إلا الأطفال- أن سبابه مجرّد تمثيلية، تماماً كمشاجراته الكلامية معنا. كان كثيراً ما يصعد الدرجات القليلة التي تصل القبو بالشارع وقد امتلأ جيبه بالتفاح أو البرتقال، ثم يأخذ في قذفها إلينا كأنها كُرات صغيرة.

ما جعلنا نهتمّ حقاً بأمر باسكولايت هو ابنته إلزه. كنا نعرف أنها تريد أن تصبح راقصة، بل لعلّها كانت بالفعل كذلك. كانت تُكثر، على أيّ حال، من التدريب تحتنا في القبو المطليّ باللون الأصفر إلى جوار مطبخ باسكولايت؛ فتاة شقراء رشيقة، تقف على أطراف أصابع قدميها، مرتدية بلوزة من التريكو الأخضر، ولعدّة دقائق تطير في الهواء كأنها بجعة، شاحبة الوجه تدور حول نفسها وتقفز، وتقع. من نافذة حجرة نومي كنت أستطيع التفرّج عليها عندما يأتي المساء: خلال فتحة الشباك المربّعة الصفراء أرى جسدها النحيف في البلوزة الخضراء الفاقعة، ووجهها الشاحب المجهد، ورأسها الأشقر الذي كان يلامس أحياناً المصباح العاري عندما تقفز، فيتأرجح المصباح، وترسل لبضع لحظات دوائر من الضوء الأصفر إلى الحوش الرمادي. بعض الناس كانوا يطلقون صيحاتهم عبر الحوش: «عاهرة!»، ولم أكن أعرف ما هي العاهرة، بينما يصيح آخرون: «قلة حياء!»، ورغم أنني كنت أعتقد أنني أعرف معنى كلمة «قلة حياء»، إلا أنني لم أستطع التصديق أن يكون لإلزه أيّ علاقة بذلك. عندئذٍ كان شبّاك باسكولايت ينفتح عن آخره، وفي وسط أبخرة تحمير اللحم يظهر رأسه الأصلع الثقيل، ومع النور الذي ينساب من شبّاك المطبخ المفتوح إلى الفناء كانت

خراطيم شتائمه تسيل عبر الفناء المظلم، والتي لم أكن أفهم منها كلمة واحدة. وسرعان ما زُوِّدَت حجرة إلزه بستارة سميكة خضراء اللون، لم تكن تسمح بتسلّل أيّ شعاع من النور إلى الخارج. على الرغم من ذلك كنت كل مساء أنظر تجاه هذا المربّع الذي تنبعث منه إضاءة مكتومة، وأراها، مع أنني لم أكن أستطيع رؤيتها: إلزه باسكولايت في بلوزتها الخضراء الفاقعة، نحيفة شقراء، ولبضع ثوانٍ تطير تحت المصباح العاري.

غير أننا انتقلنا بعد ذلك بقليل إلى منزل آخر، وكبرتُ، وعرفتُ ما هي العاهرة، وكنت أعتقد أنني أعرف ماذا تعني كلمة «قلة حياء»، وشاهدت راقصات عديدات، ولكن لم تعجبني أيّ واحدة منهن مثلما كانت تعجبني إلزه التي لم أعد أعرف عنها أيّ شيء. وانتقلنا إلى مدينة أخرى، وجاءت الحرب، حرب طويلة، ولم أعد أفكّر في إلزه باسكولايت، ولم أفكّر فيها أيضاً عندما رجعنا إلى مدينتنا القديمة مرة أخرى. حاولت أن أكسب لقمة عيشي في مختلف المهن، حتى أصبحت في النهاية سائقاً لدى تاجر فاكهة بالجملة.

كنت أحصل في الصباح على قائمة التوزيع، وعلى أقفاص التفاح والبرتقال وسلال البرقوق لأنقلها بالسيارة إلى المدينة. وفي يومٍ ما، كنت أقف بجانب المخزن وهم يُحَمِّلون سيارتي بالبضاعة، منهمكاً في مقارنة العهدة التي يسلّمها لي أمينُ المخزن بقائمة في يدي. وفي تلك الأثناء أتى المحاسب من كشكه الذي غطّته إعلانات الموز وسأل أمين المخزن: «هل باستطاعتنا التوريد لباسكولايت؟».

- هل أرسل طلبيّة؟ عنب أزرق بالتأكيد!

«نعم»، قالها المحاسب ساحباً قلم الرصاص من خلف أذنه وناظراً إلى أمين المخزن مندهشاً.

فقال الأمين: «يرسل لنا طلبيّة بين الحين والآخر: عنب أزرق.. لا أعرف لماذا، ولكننا لا نستطيع التوريد له».

ثم صاح في الشيّالين الذين يرتدون معاطف رمادية: «هيّا!»، ورجع المحاسب إلى كشكه، ولم أعد أنتبه ما إذا كان الشيّالون يحمّلون فعلاً ما هو مكتوب على قائمتي. رأيت أمامي ذلك المربّع المضاء من شبّاك القبو، ورأيت إلزه باسكولايت ترقص، نحيفة، شاحبة، مرتدية بلوزة خضراء فاقعة. في ذلك الصباح سلكت طريقاً مختلفاً عمّا هو مرسوم لي. من أعمدة الإنارة، حيث كنا نلعب، لم يبقَ إلا عمودٌ واحد، وحتى هذا كان بلا رأس. كانت سيارتي تتأرجح بفعل المطبّات العميقة وهي تمرّ على بيوتٍ معظمها مدمّر. وفي الشارع الذي كان يزدحم في ما مضى بالأطفال لم يكن هناك سوى طفل واحد: صبيّ أسمر شاحب يجلس متعباً فوق بقايا أحد الأسوار، منهمكاً في رسم أشكال في التراب الذي يميل لونه للبياض. رفع نظره إليّ عندما مررت بجانبه، ثم تركه ينخفض مرة أخرى. أمام منزل باسكولايت فرمَلْت ونزلت. كانت الأتربة تغطّي واجهات العرض الصغيرة في دكّانه وقد اسودّ لونها الأخضر من القذارة. نظرت إلى أعلى، تجاه جدار المنزل المُرمّم، ثم فتحت الباب المؤدي إلى الدكّان ونزلت ببطء. كانت رائحة الخُضار الرطبة تفوح بقوة في المكان، منبعثة من صندوق من الكرتون موضوع بجوار الباب وممتلئ عن آخره بها. عندئذٍ رأيت باسكولايت من ظهره، رأيت شعره الرمادي من تحت قبّعته، وشعرت بضيقه الشديد وهو يملأ زجاجةً بالخلّ من برميلٍ كبير. على ما يبدو كان عاجزاً عن التحكّم في سدادة البرميل، فانساب السائل الحمضي فوق أصابعه في طريقه إلى الأرض حيث تكوّنت حفرة صغيرة متعفّنة في الخشب فاحت منها رائحة حمضية، وكلّما تحرّك صدَرَ عنها صرير. عند طاولة البيع وقفت سيّدة نحيفة ترتدي معطفاً يميل إلى الحمرة ناظرة إليه بلا مبالاة. وأخيراً بدا أنه تمكّن من ملء الزجاجة، فأدخل السدادة فيها، وكرّرت أنا ما قلته عندما مررت بالباب، قلت بصوت خافت: «صباح الخير»، ولكن لم يجبني أحد. وضع باسكولايت الزجاجة فوق الطاولة، كان وجهه شاحباً وغير حليق، ثم نظر إلى السيّدة وقال: «ابنتي ماتت.. إلزه»، فقالت السيّدة بصوت مبحوح: «أعرف. أعرف ذلك منذ خمس سنوات. وأحتاج أيضاً إلى رمل لتنظيف المواعين». وردّد باسكولايت: «ابنتي ماتت»، وحدّق في المرأة وكأنّ ذلك قد حدث بالأمس، حدّق فيها محتاراً، ولكن المرأة قالت له: «زِن لي كيلو». وسحب باسكولايت

برميلاً اسودَّ لونه من تحت الطاولة مُخرجاً إياه، ثم أخذ يقلب بجاروف من الصفيح داخل البرميل، وملأ بيده المرتعشة كيساً رمادياً من الورق بكتل صفراء.

قال: «ابنتي ماتت». صمتت المرأة، ونظرتُ أنا في ما حولي، فلم أكتشف إلا أكياس معكرونة علاها التراب، وبرميل الخلّ الذي كان صنبوره ينقّط ببطء، ورمل التنظيف، ولوحة معدنية صُقلت بالميناء عليها صورة صبيّ أشقر يبتسم وهو يأكل قطعة شيكولاته لم يعد لها وجود منذ سنوات. أدخلت المرأة الزجاجة في حقيبة التسوّق الشبيهة بالشبكة، ثم وضعت الرمل بجانبها وألقت ببضع عملات معدنية فوق الطاولة، وعندما استدارت ومرّت بجانبي، أدارت يدها بالقرب من رأسها في حركة ذات معنى وابتسمت لي.

تذكّرت أشياء عديدة، تذكّرت تلك الأيام عندما كنت صغيراً حتى إنّ أنفي كان يستقرّ تحت حافة الطاولة القذرة؛ أما الآن، فدون جهد كنت قد تخطّيت ببصري البرطمان الزجاجي لشركة من شركات البسكويت، الذي امتلأ الآن بأكياس يعلوها الغبار عُبّئت بدقيق السميد - وكأنني أخذت في الانكماش لعدّة لحظات، شعرت خلالها بأنفي تحت حافة الطاولة القذرة، أحسست بالقروش المعدنية التي كنت أشتري بها البونبون في يدي، ورأيت إلزه باسكولايت ترقص، وسمعت الناس يصيحون في الحوش: «عاهرة» و«قلة حياء»، إلى أن أيقظني صوت باسكولايت: «ابنتي ماتت». كان يردّد الجملة بميكانيكية، بلا إحساس تقريباً، ثم وقف عند نافذة العرض ونظر تجاه الشارع.

«نعم». قلت له، فقال: «ماتت». قلت: «نعم». ثم استدار معطياً ظهره لي، مبقياً يده في جيب معطفه الرمادي المبقّع. «كانت تحب العنب الأزرق، ولكنها الآن ميّتة». لم يسألني: «طلباتك؟» أو «أيّ خدمة؟»، كان يقف إلى جوار نافذة العرض، بقرب البرميل الذي تتساقط من صنبوره قطرات الخل، مردّداً: «ابنتي ماتت»، أو «ماتت»، دون أن ينظر إليّ. وكأنني وقفت هناك عمراً بأكمله، ضائعاً ومنسيّاً، في حين انساب الوقت من حولي. لم أستطع أن أنتزع نفسي من هناك إلا عندما دخلت امرأة أخرى الدكّان. كانت قصيرة ممتلئة، تضع أمام بطنها حقيبة التسوّق، والتفت باسكولايت ناحيتها قائلاً: «ابنتي ماتت». فقالت المرأة:

«نعم». وانخرطت في البكاء فجأة، ثم قالت: «من فضلك، رمل للتنظيف، كيلو». وجاء باسكولايت وراء الطاولة، وأخذ يقلب بالجاروف الصفيح داخل البرميل. كانت المرأة لا تزال تبكي عندما غادرتُ الدكّان.

كان الصبي الشاحب الأسمر، الذي جلس عند مجيئي فوق بقايا السور، يقف الآن على سلّم سيّارتي ناظراً بانتباه تجاه عجلة القيادة، ثم أدخل يده عبر الشبّاك المفتوح وأدار مفتاح النور الجانبي، الأيسر ثم الأيمن. فزع الصبي عندما وقفت خلفه فجأة، ولكني أمسكت به ناظراً إلى وجهه الشاحب الخائف، ثم التقطت تفاحة من أحد الصناديق في عربتي وأعطيتها له. نظر إليّ مندهشاً حتى إنني ارتعبت، وأخذت تفاحة ثانية، ثم ثالثة ودسستها في جيبه وتحت سترته... تفاحاً كثيراً، قبل أن أركب السيارة وأبتعد عن المكان.

البطاقة البريدية

لا أحد من معارفي يدرك سرّ اهتمامي بالاحتفاظ بوريقة ليست لها أيّ قيمة سوى أنها تحْيي ذكرى يومٍ محدّد في حياتي، ما جعل الناس يطلقون عليّ صفة «العاطفية»، وهو أمر لا يليق بمركزي كوكيل لشركة نسيج. إلا أنني أدفع عن نفسي هذه التهمة، وأحاول دائماً أن أُضفي على الوريقة قيمة وثائقية.

هي قصاصة ضئيلة من الورق الرخيص، مستطيلة الشكل، ليست لها أبعاد طابع البريد، وإن كانت لها مساحته، فهي أطول منه وأقلّ عرضاً، وعلى الرغم من صدورها عن هيئة البريد، فليست لها أدنى قيمة لدى هواة جمع الطوابع. حواف القصاصة مُحاطة بخطٍّ صارخ الاحمرار، ويقسمها خطٌّ عرضيّ أحمر آخر إلى مستطيلين مختلفي الحجم، داخل المستطيل الصغير حرف R باللون الأسود السميك، وفي الكبير، باللون الأسود أيضاً، كلمة «دوسلدورف»، وبجانبها رقم، وهو 634. هذا هو كلّ شيء. والقصاصة لونها مصفرّ وتكاد تكون مهترئة. والآن، ولأنني وصفتها بكلّ دقّة، فقد عزمت على أن أستهين بها وأقول: ورقة تسجيل عادية كالتي تُلصق كلّ يوم بالمئات في أيّ مكتب بريد.

ولكن هذه القصاصة تذكّرني بيومٍ من أيام حياتي لا يمكن أن أنساه، على الرغم من محاولات البعض المستمرّة لمحوه من ذاكرتي، إلا أن ذاكرتي ما زالت تعيه جيّداً.

عندما أفكّر في ذلك اليوم فإنني أشمّ على الفور رائحة بودنغ الفانيليا: سحابة دافئة حلوة تتسلّل من تحت باب حجرة نومي تذكّرني بقلب أمي الطيّب. كنت قد طلبت منها أن تعمل لي في أول أيام إجازتي آيس كريم بالفانيليا، وعندما استيقظت شممت الرائحة.

كانت العاشرة والنصف. أشعلت سيجارة ورفعت الوسادة، وأخذت أخطّط كيف سأقضي فترة العصر. كنت أريد الذهاب للسباحة. بعد الأكل سأنطلق إلى الشاطئ، أسبح بعض الوقت، أقرأ، أدخّن، وأنتظر زميلة شابة وعدت بالمجيء إلى الشاطئ بعد الخامسة.

في المطبخ كانت أمي تدقّ اللحم، وحينما كانت تتوقّف للحظات، كنت أسمعها تدندن بشيءٍ ما، ربما بترنيمة دينية. كنت أشعر بسعادة غامرة. قبل أيام اجتزت امتحان التلمذة الصناعية، وكان في انتظاري وظيفة محترمة في مصنع نسيج، وظيفة لها مستقبلٌ كبير، أما الآن فأنا في إجازة. أربعة عشر يوماً إجازة، في الصيف. كان الجوّ خارج المنزل حارّاً، ولكنني كنت عندئذٍ ما زلت أحبّ الجوّ الحارّ. عبر خصاص النافذة رأيت ما علّمونا أن نسمّيه «بهاء الطبيعة»: رأيت خضرة الأشجار أمام منزلنا، ثم ترامى إلى سمعي صوت الترام. كنت أنتظر الإفطار بسرور. جاءت أمي تسترق السمع من وراء باب حجرتي: جاءت عبر الممرّ وظلّت واقفة أمام بابي، ثم ساد الصمت لحظةً في شقّتنا، عندئذٍ أردت أن أنادي أمي، ولكن جرس الباب رنّ في تلك اللحظة.

ذهبت أمي إلى الباب. كان لأزيز الجرس الواضح في الطابق السفلي وقعٌ غريب على مسمعي. رنّ الجرس أربع، خمس، ستّ مرّات. تحدّثت أمي خارج الشقة مع السيّدة كورتس جارتنا آنذاك. ثم سمعت صوت رجل، وعرفت على الفور أنه ساعي البريد، على الرغم من أنني لم أسمع صوته إلا نادراً. جاء ساعي البريد إلى ممرّنا، وقالت والدتي: «نعم؟»، وردَّ ساعي البريد: «هنا.. وقّعي من فضلك!». وساد الصمت التام للحظة، ثم قال الساعي: «شكراً». وأغلقت أمي الباب خلفه، وسمعت وقع خطواتها وهي عائدة إلى المطبخ.

نهضت بعد برهة وذهبت إلى الحمّام. حلقت ذقني واغتسلت طويلاً وباعتناء، وعندما أغلقت الصنبور سمعت أمي وهي تهمّ بطحن البنّ. وكأننا في يوم الأحد، الاستثناء الوحيد هو أنني لم أذهب إلى الكنيسة.

لن يصدّقني أحد، لكنّني فجأة أحسست بقلبي ينقبض. لا أدري لذلك سبباً، لكنّه انقبض فجأة. لم أعد أسمع ضجيج طحن البنّ. نشّفت بدني، وارتديت قميصاً وسروالاً وزوجاً من الجوارب وحذاء. مشّطت شعري وذهبت إلى غرفة المعيشة. على المائدة زهور: قرنفل وردي جميل. كانت المائدة مُعدّة لتناول الطعام بطريقة لطيفة، وعلى طبقي علبة سجائر حمراء.

جاءت أمي من المطبخ حاملةً إبريق القهوة. لاحظت على الفور أثر البكاء في عينيها. كانت تحمل برّاد القهوة في يد، وفي الأخرى مظروفاً صغيراً، والاحمرار بادٍ في عينيها. ذهبت إليها، وتناولت الإبريق منها، وقبّلتها على خدّها قائلاً: «صباح الخير!». فنظرت إليّ وقالت: «صباح النور. أنمت جيّداً؟!»، وحاولت أن تبتسم وهي تقول ذلك، لكنها أخفقت.

جلسنا، وصبّت أمي القهوة، وفتحت أنا العلبة الحمراء الموضوعة على طبقي، وأشعلت سيجارة. زالت عنّي شهيّتي فجأة. أخذت أقلّب الحليب والسكّر في القهوة محاولاً النظر إلى أمي، ولكنني كنت سريعاً ما أخفض البصر. وسألتها: «هل جاءت خطابات؟»، على الرغم من أنه كان سؤالاً سخيفاً، فقد كانت يد أمي الصغيرة المتورّدة تستند على المظروف الصغير الذي كانت الجريدة تغطّي أعلاه، وأجابت: «نعم»، وأزاحت المظروف تجاهي. فتحتُ الجريدة، وبدأت أمي في إعداد السندوتشات لي. كان عنوان الجريدة الرئيسي في الصفحة الأولى هو: «الألمان يتعرّضون للاضطهاد على الحدود». كانت العناوين الرئيسية للصفحات الأولى في الصحف تدور منذ أسابيع حول هذه الموضوعات، إضافةً إلى تقارير عن «تفجّر الاضطرابات على الحدود البولندية»، وعن «الهاربين الذين يتركون مناطق الحدود البولندية ويفرّون إلى الرايخ». نحّيت الجريدة، ثم قرأت إعلان الدعاية لإحدى شركات النبيذ التي كنا نشتري منها في بعض الأحيان، عندما كان والدي حيّاً. كان النبيذ الأبيض من نوع الريزلينغ معروضاً بثمنٍ بخس. ونحّيت الإعلان أيضاً.

كانت أمي قد انتهت من إعداد السندوتشات، ووضعتها على طبقي قائلة: «كلْ شيئاً!». ثم انفجرَتْ في نحيبٍ شديد. لم أقوَ على النظر إليها. لا أستطيع رؤية إنسانٍ يعاني معاناة حقيقية، ولم أدرك إلا عندئذٍ أن سبب ذلك لا بدّ أن يكون له علاقة بالبريد الذي جاءنا اليوم. لا بدّ أنه البريد. أطفأت السيجارة داهساً إيّاها بإصبعي، وأخذت قضمةً من السندوتش، وتناولت الخطاب المجاور لي، وعندما رفعته لاحظت أن هناك بطاقة بريدٍ أسفله. لم أرَ إشعار التسجيل هذا - هذه القصاصة الصغيرة التي ما زلت أحتفظ بها إلى اليوم، والتي جعلتني مشهوراً بالعاطفية. وهكذا قرأت الخطاب أولاً.

كان من الخال إدي. كتب خالي إنه بعد عشر سنوات طويلة من عمله مساعد مدرّس أصبح أخيراً مدرّساً في المرحلة الثانوية. كان لا بدّ أن ينتقل إلى عشٍّ صغير. لم يكد يطرأ عليه أيُّ تحسّن ماليّ، إذ إنه اندسّ الآن بين أكثر الطبقات المحلّيّة بؤساً، وأُصيب أطفاله بالسعال الديكي، أما هو -يقول في خطابه- فقد سئم كلّ شيء، ونحن نعلم لماذا. نعم، نحن نعلم لماذا، لقد سئمنا نحن أيضاً، كثيرون سئموا.

حينما أردت أخذ البطاقة البريدية لم أجدها. أخذتها أمي ورفعتها أمام عينيها. أخذت أحملق في شريحة الخبز المقضومة، أقلّب فنجان قهوتي، وأنتظر. لا أنسى ذلك. أمي لم تبكِ بمثل هذه الحرقة إلا مرّة واحدة: عندما توفّي أبي، ولم أقوَ آنذاك أيضاً على النظر إليها. لقد منعني الخجل -لا أعرف لذلك اسماً آخر- من أن أواسيها.

حاولت أن أقضم شريحة الخبز، لكنّني أحسست بغصّة في حلقي، إذ أدركت فجأة أن ما جعل الأم تخرج عن شعورها إلى هذا الحدّ لا بدّ أن يكون شيئاً ذا صلة بي. وغمغمت أمي بشيء لم أفهمه، وأعطتني البطاقة. عندئذٍ رأيت ورقة التسجيل: هذا المستطيل الأحمر الحواف، الذي قسمه خطٌّ أحمر إلى مستطيلين آخرين، داخل المستطيل الصغير حرف R باللون الأسود السميك، وفي الكبير كلمة «دوسلدورف»، والرقم 634. فيما عدا ذلك كانت البطاقة عادية تماماً، معنونة باسمي، وعلى الظهر كان مكتوباً: «السيّد/ برونو شنايدر: عليكم الحضور يوم 5/8/1939 إلى معسكر شليفن بمنطقة أدنبروك، وذلك لتلقّي تدريبات تستغرق ثمانية أسابيع».

كانت الكلمات «برونو شنايدر»، والتاريخ، و«أدنبروك» مكتوبة بالآلة الكاتبة، أما بقية الكلمات فكانت مطبوعة. أسفل البطاقة شخبطةٌ ما، ثم كلمة «الرائد» مطبوعة.

واليوم أعرف أن هذه الشخبطة لم تكن ذات أهمية، فهناك ماكينة تنفّذ المهمة نفسها. لم يكن مهمّاً إلا القصاصة الملصوقة والتي من أجلها كان على أمي أن توقّع إيصالاً.

وضعت يدي على ذراع أمي قائلاً: «يا إلهي! لمدة ثمانية أسابيع فقط؟!»، وأجابتني أمي: «نعم.. نعم». قلت: «ثمانية أسابيع فقط»، وكنت أعلم أنني أكذب، وجفّفت أمي دموعها وقالت: «نعم.. بالطبع». وتبادلنا الكذب دون أن ندري لماذا نكذب، ولكننا كنا نكذب، ونعرف أننا نكذب.

أمسكت شريحة الخبز مرة أخرى، عندئذٍ خطر ببالي أن اليوم هو الرابع في الشهر، وأنني سأكون غداً في الساعة العاشرة على بعد ثلاثمئة كيلومتر تجاه الشرق. أحسست بامتقاع في الوجه، ووضعت الخبز ثانية، ونهضت دون أن أبالي بأمي. ذهبت إلى حجرتي، ووقفت بجانب مكتبي، وسحبت الدرج.. ثم أرجعته مرة أخرى. أجلت بصري في الغرفة، شعرت أن شيئاً ما قد حدث، ولم أعرف ما هو. لم تعد الحجرة حجرتي، هكذا كان إحساسي باختصار. اليوم أفهم ذلك، لكنني آنذاك كنت أفعل أشياء لا معنى لها لأؤكّد لنفسي ملكيّتي للحجرة. كنت أنقّب باحثاً في صندوق الكرتون الذي أحفظ فيه الخطابات، وأرتّب كتبي دون أن أبغي أيّ فائدة من وراء ذلك. وقبل أن أدرك ما الذي أفعله، بدأت أحشو حقيبتي بقميص ولباس ومنديل وجوارب. ثم ذهبت إلى الحمّام لأحضر أدوات الحلاقة. ما زالت أمي جالسة على مائدة الإفطار. لم تعد تبكي. ما زالت قطعة الخبز المقضومة هناك، والقهوة في فنجاني. قلت لأمي: «سأذهب إلى آل غيسلباخ لأستفسر تليفونياً عن موعد سفري».

حينما عدت من عند آل غيسلباخ كانت الساعة تدقّ الثانية عشرة ظهراً. رائحة الشواء والقرنبيط تعبق بصالتنا. كانت أمي تهمّ بتكسير قطع الثلج في داخل كيس لتحشوه في ماكينة الآيس كريم الصغيرة.

ينطلق قطاري في تمام الثامنة مساء، ونحو السادسة صباحاً سأكون في أدنبروك. ومع أن الطريق إلى المحطة لا يستغرق سوى ربع ساعة، فقد خرجت من المنزل في الساعة الثالثة. كذبت على أمي التي لا تعرف الوقت الذي تستغرقه الرحلة إلى أدنبروك.

والثلاث ساعات تلك -التي قضيتها في المنزل- هي في ذاكرتي أسوأ وأطول من كلّ الوقت الذي قضيته خارج المنزل في ما بعد، وقد كان وقتاً طويلاً. لا أدري ماذا فعلنا. لم نجد

للطعام طعماً. أرجعت أمي بعد قليل اللحم المشوي والقرنبيط والبطاطس وآيس كريم الفانيليا إلى المطبخ. ثم شربنا القهوة المتبقية من الإفطار، والتي حفظتها أمي دافئة تحت غطاء من القماش الأصفر. دخّنت عدة سجائر.. ومن وقتٍ إلى آخر كنّا نتبادل بضع كلمات. كنت أقول: «ثمانية أسابيع»، وتردّ أمي: «نعم.. نعم.. بالطبع». لم تعد تبكي. طيلة ثلاث ساعات ونحن نتبادل الكذب حتى لم أعد أحتمل. باركتني الأم وقبّلتني على خدّي. وعندما أغلقتُ الباب خلفي عرفت أنها تبكي.

ذهبت إلى المحطة. كان الزحام على أشدّه هناك. كنا في وقت الإجازات: أناس سعداء يعلو بشرتهم اللون البرونزي يسيرون هنا وهناك. احتسيت كأس بيرة في صالة الانتظار، ثم قررت نحو الثالثة والنصف أن أتصل بزميلتي الشابة التي كنت أنوي مقابلتها على الشاطئ.

بينما كنت أدير الرقم، وكان القرص النيكلي المثقّب يعود لخامس مرة إلى مكانه، كدت أندم على الاتصال، لكنني أدرت الرقم السادس أيضاً، وعندما سمعت صوتها يسأل: «مَن يتحدّث؟» سكتُّ في البداية لحظة.. ثم أجبت ببطء: «برونو.. هل تستطيعين المجيء؟ لا بدّ أن أرحل.. إلى الجيش!».

- في الحال؟!

- نعم.

أخذت تفكّر برهة، وسمعت في التليفون أصوات الآخرين. كان من الواضح أنهم يجمعون نقوداً ليحضروا آيس كريم.

- اتفقنا، سآتي.. إلى المحطة؟

- نعم.

أتت بسرعة البرق إلى المحطة، ولا أدري إلى اليوم، على الرغم من أنها قد أصبحت زوجتي منذ عشر سنوات، لا أدري حتى اليوم ما إذا كان من المفروض أن أندم على هذه المحادثة التليفونية. لقد حافظت لي على وظيفتي في الشركة، وأحيَت طموحي الميّت بعد رجوعي إلى الوطن، وفي الحقيقة فإليها يرجع الفضل في تحويل المستقبل الكبير، الذي كانت تبشّر به الوظيفة، إلى واقع حيّ.

ولكنني لم أقضِ حتى معها الوقت الذي كان من الممكن أن أقضيه. ذهبنا إلى السينما، وفي صالة السينما تلك، الشديدة الحرارة والمظلمة، قبّلتها على الرغم من قلّة رغبتي في ذلك.

قبّلتها كثيراً، وفي تمام السادسة ذهبت إلى رصيف المحطة رغم أن الوقت كان أمامي حتى الثامنة. وعلى رصيف المحطة قبّلتها مرة أخرى، ثم قفزت في قطارٍ ما سافر جهة الشرق. منذ ذلك الحين لم أعد أستطيع رؤية الشواطئ دون أن أشعر بالألم: الشمس، الماء، ومرح الناس؛ كل هذا يبدو لي في غير موضعه. أفضّل على ذلك التسكّع في المدينة وحيداً في الجوّ المطير.. وأن أذهب إلى السينما حيث لم يعد عليّ أن أقبّل أحداً.

ما زال المستقبل أمامي في الشركة كبيراً. من الممكن أن أصبح مديراً. بل ومن المحتمل أن يحدث ذلك وفقاً لعبثية قانون الكسل. فهم مقتنعون بأنني أشعر بالانتماء للشركة، وأنني سأفعل شيئاً من أجلها. ولكنني لست منتمياً لها، ولا أفكّر في فعل شيء من أجلها.

وكثيراً ما أنظر إلى قصاصة التسجيل هذه بتأمل عميق، هذه القصاصة التي تمثّل منعطفاً فجائياً في حياتي. وعندما يُعقد امتحان التلمذة الصناعية في الصيف، ويأتي إليّ الناجحون لأهنّئهم، أجد من واجبي أن ألقي عليهم كلمة قصيرة تلعب فيها كلمة «مستقبل كبير» دوراً تقليديّاً.

هنا تيبتن

لا يفهم قساة القلوب لماذا أهتمّ بوظيفتي وأتفانى في أدائها بهذا الشكل، وهي الوظيفة التي لا يعتبرونها جديرةً بي. قد لا يتفق عملي بالفعل مع مؤهّلي التعليمي، وأيضاً لم تدُر حوله في يومٍ ما أيّ أغنية من الأغاني العديدة التي غُنّيت لي في المهد. ولكن عملي يمتّعني، ومنه أتعيّش: أنا أقول للناس أين هم.

مسافرو هذه الأيام، الذين يركبون من مختلف المحطات في المساء قطارات تحملهم إلى أماكن بعيدة، يستيقظون في الليل عند محطتنا. في ارتباك يحدّقون في الظلام، ولا يعلمون ما إذا كانوا قد جاوزوا هدفهم، أو أنهم لم يصلوا بعد إلى الهدف، أو ربما كانوا عند الهدف تماماً (ففي مدينتنا آثارٌ شديدة التنوّع تجذب أفواجاً من السيّاح). أقول لهؤلاء جميعاً أين هم. أفتح مكبّر الصوت بمجرّد دخول قطار إلى المحطة وبعد توقّف عجلات قاطرته. متردّداً أطلق عبارتي في وجه الظلام: «هنا تيبتن - أنتم الآن في تيبتن. على المسافرين الذين يريدون زيارة مقبرة تيبورتيوس النزول هنا!». ويتردّد صوتي عبر الأرصفة حتى يرجع صداه إلى الكابينة التي أجلس فيها: صوت مظلم يخترق الظلام، يبدو وكأنه يعلن شيئاً مشكوكاً في أمره على الرغم من أنه لا ينطق إلا بالحقيقة عاريةً.

يتدافع بعضهم عندئذٍ في تعجّل على رصيف المحطة المضاء إضاءة خافتة ومعهم حقائبهم، فمحطة تيبتن هدفهم. أراهم ينزلون الدرج، ثم يظهرون ثانية على رصيف رقم 1 وهم يسلّمون تذاكر سفرهم عند البوّابة للموظّف النعسان. في القليل النادر يأتينا أيضاً في الليل مسافرون لهم طموحاتٌ تجارية، وذلك لتغطية احتياج شركاتهم من مناجم الرصاص في تيبتن. ولكن في الأغلب يأتينا سيّاح تجذبهم مقبرة تيبورتيوس، الفتى الرومانيّ الذي انتحر قبل 1800 عام مأخوذاً بفتنة إحدى جميلات تيبتن. «لم يكن قد تعدّى الصبا»، هذه الكلمات المنقوشة على شاهد قبره الذي يمكنكم مشاهدته والإعجاب بعراقته في متحف

مدينتنا، «لكن الهوى صرعه». كان الفتى قد جاء من روما إلى مدينتنا لكي يشتري خام الرصاص لأبيه الذي يعمل مورّداً للجيش.

لم أكن بالطبع في حاجة إلى التردّد على خمس جامعات والحصول على درجتَيْ دكتوراه لأتحدّث ليلةً بعد أخرى في وجه الظلام قائلاً: «هنا تيبتن - أنتم الآن في تيبتن». ولكن عملي يملؤني في الحقيقة بالرضا. أتلو جملتي بصوت خافت لا يوقظ النائمين، لكنه أيضاً لا يعبر آذان المستيقظين دون أن يسمعوه. وأحمّل صوتي نبرات الإلحاح حتى يفكّر الغافون مرة وأخرى، ويقرّرون ما إذا كانت تيبتن هي هدفهم.

عندما أستيقظ في الدقائق الأخيرة للضحى وألقي نظرة من نافذة المنزل، أرى المسافرين الذين استسلموا لإغراء صوتي في الليل وهم يتجوّلون في مدينتنا الصغيرة، مسلّحين بالكتيّبات التي يرسلها مكتبنا السياحي بسخاء إلى جميع أنحاء العالم. أثناء تناولهم للإفطار يكونون قد قرؤوا أن كلمة «تيبتن» مشتقة من الكلمة اللاتينية تيبورتينوم، التي ظلّت تتغيّر وتتبدّل عبر القرون حتى استقرت في شكلها الحاضر. ها هم الآن يذهبون إلى متحف مدينتنا حيث يُعجبون بشاهدة القبر الذي وُضع فوق قبر فيرتر الرومانيّ قبل 1800 عام: بروفيل الصبي كان منحوتاً على الحجر الرمليّ المائل للحمرة وهو يمدّ يديه عبثاً نحو فتاة. «لم يكن قد تعدّى الصبا، لكن الهوى صرعه»، وتشير أيضاً إلى عمره الغضّ تلك الأشياءُ التي وُجدت في قبره: أشكال صغيرة في لون العاج لاثنين من الفيلة وحصان وكلب. والأشكال كما يدّعي بروزلر في كتابه «نظريّتي في مقبرة تيبورتيوس» كانت نوعاً من لعبة الشطرنج. ولكنني أشكّ في صحة هذه النظريّة، بل إنني متأكّد أن تيبورتيوس كان يلهو بهذه الأشياء كما يلهو الأطفال. هذه الأشكال الصغيرة العاجية تبدو تماماً كمثيلاتها التي نحصل عليها هدية عندما نشتري نصف رطل من السمن النباتي، وهي تؤدّي الغرض نفسه: الأطفال يلهون بها... ولعلّ لزاماً عليّ أن أشير هنا إلى الكتاب الممتاز لكاتب مدينتنا فولكر فون فولكرسن الذي ألّف رواية ممتازة بعنوان: «تيبورتيوس: قدر رومانيّ اكتملت فصوله في بلدتنا». إلا أنني أعتبر عمل فولكرسن مضلّلاً، فهو يأخذ أيضاً بنظرية بروزلر في ما يخصّ الهدف من أدوات اللعب.

أنا نفسي -ولا بدّ هنا أن أقرّ وأعترف أخيراً بذلك- أحوز الأشكال الأصلية التي كانت في قبر تيبورتيوس؛ سرقتها من المتحف، واستبدلتها بأخرى كنت قد حصلت عليها هدية عند شرائي نصف رطلٍ من السمن النباتي: فيلان وحصان وكلب، لونها الفاتح يشبه لون حيوانات تيبورتيوس، لها الحجم نفسه، والوزن ذاته، وأيضاً -وهذا ما يهمّني بصورة خاصة- تؤدّي الغرض عينه.

وهكذا يأتي السيّاح من كلّ أنحاء العالم ليشاهدوا ويُعجبوا بقبر تيبورتيوس ولعبه. في كل صالات العالم الأنجلوسكسوني يلصقون إعلانات مكتوب عليها: Come to Tibten، وعندما أقول في الليل قولي: «هنا تيبتن - أنتم الآن في تيبتن. على المسافرين الذين يريدون زيارة مقبرة تيبورتيوس النزول هنا»، فإنني أستدرج ركّاب قطارات هذه الأيام الذين أغواهم إعلاننا المعلّق في محطات قطار بلادهم. لن يفوتهم طبعاً رؤية لوح الحجر الرمليّ الذي لا يرقى إلى أصالته التاريخية أيّ شكّ، وسوف يتطلّعون إلى البروفيل المؤثّر لفتى رومانيّ صرعه الهوى، فأغرق نفسه في حفرة مشبعة بالمياه من حفر منجم الرصاص، ثم تنزلق أعينهم إلى الحيوانات الصغيرة: فيلان وحصان وكلب - وهنا بالذات يمكن للسيّاح أن يدرسوا حكمة هذا العالم، ولكنهم لا يفعلون. وتكوّم فتيات من داخل البلاد وخارجها -وقد مسَّ التأثّر شغاف قلوبهن- الورد على قبر الصبي. وتُنظم القصائد، بل لقد أضحت حيواناتي أيضاً -الحصان والكلب (لا بدّ أن أكون استهلكت رطلين من السمن النباتي حتى أحصل عليهما)- موضوعاً لمحاولات شعرية. «وتلعبين كما نلعب بالكلب والحصان...» هذا هو أحد أبيات قصيدة لشاعر حظي ببعض الشهرة. ها هي ذي الحيوانات ترقد هناك -على قطيفة حمراء وراء زجاج سميك في متحف مدينتنا: هدية مجانية من شركة كلوسهنرز أيغلب للسمن النباتي- شواهد على استهلاكي للسمن النباتي. وفي الغالب، وقبل أن أذهب في العصر إلى الوردية، أزور لدقيقة متحف المدينة وأتأملها: تبدو أصلية، لونها حال إلى الصفرة ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تختلف عن تلك التي ترقد في درجي: إذ إنني ألقيت باللعب الأصلية بين لعب أخرى حصلت عليها عند شراء سمن كلوسهنرز النباتي، وكم حاولت استخراج الأصليّين، ولكن بلا جدوى.

مستغرقاً في التأمل أمضي عندئذٍ إلى عملي، أعلّق قبّعتي على المشجب، وأخلع السترة، وأضع سندوتشاتي في الدرج، وأرتّب ورق سجائري والتبغ والجريدة، وعند وصول قطار أقرأ تلك الجملة الواجب عليّ ترديدها: «هنا تيبتن - أنتم الآن في تيبتن. على المسافرين الذين يريدون زيارة مقبرة تيبورتيوس النزول هنا». أقول ذلك بصوتٍ خافت لا يوقظ النائمين، لكنه أيضاً لا يعبر آذان المستيقظين دون أن يسمعوه. وأحمّل صوتي نبرات الإلحاح حتى يفكّر الغافون مرة وأخرى، ويقرّروا ما إذا كانت تيبتن هي هدفهم.

ولا أفهم كيف يعتبر الناس هذه الوظيفة ليست جديرةً بي.

وكان مساء.. وكان صباح

لم يخطر على باله أن يترك هدايا عيد الميلاد التي اشتراها لزوجته آنّه في أمانات المحطة إلا مع انتصاف النهار. كان سعيداً بهذه الفكرة لأنها أعفته من العودة إلى المنزل مباشرة. إنه يخشى العودة إلى المنزل منذ أصبحت آنّه لا تتبادل معه الحديث. فما إن تطأ قدماه الشقّة حتّى يتدحرج صمتها على قلبه كحجر قبر. كان في ما مضى، ولمدّة عامين بعد يوم الزفاف، يتشوّق إلى المنزل: كان يحب تناول الطعام مع آنّه، حديثه معها، ثم الذهاب إلى الفراش؛ ولكن أكثر ما كان يحبّه هي تلك الساعة التي تفصل بين الذهاب إلى الفراش والاستغراق في النوم. كانت آنّه تستغرق في النوم قبله، لأنها كانت آنذاك دائماً متعبة، أما هو فيرقد إلى جانبها في الظلام، يسمع أنفاسها، ويشاهد الأضواء التي تُطلقها في بعض الأحيان كشّافات السيّارات من أقصى الشارع على سقف الحجرة: حزم ضوئية صفراء ساطعة تعكس على الحائط لبرهة «بروفيل» زوجته النائمة، ثم تغرق الحجرة في الظلام من جديد عندما تبلغ السيّارات نهاية الشارع، ولا يتبقّى إلا تلك الدوائر الرقيقة لنقوش الستائر التي يرسمها على سقف الحجرة ضوءُ المصباح الغازي في الشارع. كان يحب هذه الساعة أكثر من أيّ ساعة أخرى أثناء يومه، لأنه كان يشعر باليوم وهو يتسلل من بين يديه، ويشعر بنفسه وهو يغوص في النوم كأنما يغوص في الماء.

أخذ يسير الهوينى أمام شبّاك الأمانات وقد تملّكه التردّد، رأى خلفه صندوق الكرتون الخاص به، لا يزال بين الحقيبة الجلدية الحمراء ودنّ الخمر. هبط المصعد المفتوح خالياً، وقد ابيضَّ لونه بفعل الثلج، وكأنه ورقة بيضاء بين الأسمنت الرمادي لحجرة الأمانات. اتجه الرجل الذي يعمل على المصعد إلى الأمام، وقال للموظّف: «إنها الآن أجواء عيد الميلاد بحق. أليس جميلاً أن يلهو الأطفال بالثلج؟»، وأومأ الموظّف، وأخذ ينظّف أظافره بقصاصة ورقية، ويحصي النقود في درجه الخشبي مرسلاً نظرات ارتياب إلى برنيش الذي أخرج إيصال الأمانات من جيبه، ثم طواه مرة أخرى وأعاده حيث كان. لقد أتى إلى الشبّاك

ثلاث مرات من قبل، أخرج إيصال الأمانات ثلاث مرّات، وفي كلّ مرّة كان يعيده. ضايقته نظرات الموظّف المرتابة. مشى متمهّلاً إلى بوّابة الخروج وظلَّ واقفاً هناك يرسل النظر إلى الساحة الخالية. كان يحب الثلج، يحب البرودة، وطالما انتشى وهو فتىً باستنشاق الهواء البارد النقي. ألقى سيجارته وعرّض وجهه للريح التي كانت تهبّ على المحطة حاملةً ندف ثلج رقيقة وكثيفة. ظلَّ برنيش فاتحاً عينيه، فهو يحبّ تعلّق ندف الثلج بأهدابه. دائماً نُدف جديدة، بينما تسيل القديمة مكوّنة قطرات رقيقة تهبط على خديه. مرّت أمامه فتاةٌ مسرعة، رآها وهي تعبر الساحة متعجّلة وقد غطّى الثلج قبّعتها الخضراء، ولكنه لم يلاحظ الحقيبة الجلدية الحمراء في يدها، تلك التي كانت بجوار صندوقه في حجرة الأمانات، إلا عندما وقفت على محطة الترام.

أخذ برنيش يتحدّث إلى نفسه: على الإنسان ألّا يتزوّج؛ إنهم يهنّئون المتزوّج، ويرسلون إليه زهوراً، ويبعثون إلى منزله ببرقيات سخيفة، ثم يتركونه وحيداً. يسألونه ما إذا كان قد فكّر في كل شيء: في أدوات المطبخ، ابتداءً من المملحة وحتى الموقد الغازي، ثم يطمئنون أيضاً على زجاجة التوابل في رفّ المطبخ، ويحسبون ويراجعون الحساب ما إذا كان في مقدورك أن تعول عائلة، ولكن ماذا تعني كلمة «عائلة»، فهذا ما لا يقوله أحدٌ لأحد. يرسلون الزهور، عشرين باقة، ويعبق المكان برائحة الزهور وكأنك في جنازة، ثم يهشّمون أمام باب المنزل أوانيَ خزفية(*******)، ويتركونك وحيداً.

مرَّ عليه رجلٌ لاحظ أنه سكران. سمعه يتغنّى: «عيد الميلاد جاءنا»، ولكن برنيش لم يلتفت إليه، لذا فإنه لم يلاحظ أن الرجل يحمل في يده اليمنى دنّ الخمر إلا بعد مرور مدة من الوقت. أدرك عندئذٍ أن صندوق الكرتون الذي يضمّ هدايا عيد الميلاد لزوجته يقف وحيداً على الرفّ الأعلى في حجرة الأمانات. كان في الصندوق مظلّة وكتابان وبيانو ضخم مصنوع من الشيكولاته، أصابعه البيضاء من اللوزيّة، والسوداء من المكسّرات المهروسة. كان البيانو-الشيكولاته في ضخامة المعجم، وقد ذكرت له البائعة أن صلاحية الشيكولاته نصف عام.

واصل الحديث مع نفسه قائلاً: لعلّي كنت صغيراً على الزواج، ربما كان عليّ أن أنتظر حتى تتخلّى آنّه عن جدّيّتها بعض الشيء، وأصبح أنا أكثر جدّيّة. ولكنه كان يعلم حقّ العلم أنه جادّ بما فيه الكفاية، وأن جدّيّة آنّه ليست مبالغاً فيها. لذا كان يحبها. من أجل الساعة التي تسبق الاستغراق في النوم استغنى عن الذهاب إلى السينما وعن الرقص، بل وعن مواعيده في المساء. عندما يرقد على الفراش كان السلام والتقوى يملأان نفسه، وكان يردّد لنفسه عندئذٍ الجملة التي لم يعد يتذكّر نصّها بالضبط: «وخلق الله الأرض والقمر، وفصل بين الليل والنهار، وبين النور والظلام. وكان مساء وكان صباح»(********). كان يعقد النيّة على قراءة نص الآيات بالضبط في الكتاب المقدّس الخاص بـ آنّه، ولكنّه كان دائماً ينسى. أن يخلق الله النهار والليل بدا له أمراً عظيماً كخلق الزهور والحيوانات والإنسان.

كان يحب تلك الساعة السابقة للاستغراق في النوم أكثر من أيّ شيء آخر؛ ولكن منذ باتت آنّه لا تتبادل معه الحديث، فإنه يشعر بصمتها كالحجر على قلبه. لو تنطق ببضع كلمات مثل: «أصبح الجوّ أكثر برودة»، أو «ستمطر»، لشعرَ بارتياح، لو كانت فقط تقول: «نعم، نعم» أو «لا، لا»، أيّ ثرثرة فارغة، لغمرته السعادة، وما كانت فكرة عودته إلى المنزل ترعبه بهذا الشكل. ولكن وجهها كان يظهر للحظات وكأنه منحوتٌ من الصخر. عرف فجأة في تلك اللحظات كيف ستبدو آنّه عندما يتقدّم بها العمر. تملّكه الرعب، ورأى نفسه وهو ملقى في المستقبل وقد زاد عمره ثلاثين عاماً، وكأنه في عصر حجري. ورأى نفسه أيضاً شيخاً ذا وجه كوجوه بعض الرجال الذين يعرفهم: وجه تركت فيه التجارب المريرة آثارها، أو وجه متقلّص من كثرة ما ازدرد من آلام، أو وجه يطفح صُفرة - أقنعة منثورة بين ساعات اليوم كوجوه الموتى. في بعض الأحيان كان يتخيّل أيضاً كيف كانت تبدو وهي صبيّة، على الرغم من أنه لم يتعرّف عليها إلا منذ ثلاث سنوات، تخيّلها وهي في العاشرة من عمرها، حالمةً تقرأ كتاباً على ضوء مصباح، جادّة، مضيّقة عينيها، وقد بدا سوادهما تحت الأهداب الشقراء، فاغرة فمها وهي تقرأ. عندما يجلس قبالتها عند تناول الطعام فإن ملامح وجهها تتبدّل كالصور التي تتغيّر ملامحها إذا ما أدرتَها يميناً أو يساراً. وخطر على باله فجأة أنها بالتأكيد كانت تأكل بالطريقة نفسها وهي طفلة: تقطع البطاطس بالشوكة بحرص، ثم

تسكب نقاطاً من الصلصة فوقها ببطء. التصق الثلج بأهداب عينيه حتى كاد يحجب عنه الرؤية، ومع ذلك استطاع أن يميّز الترام رقم 4 الذي انزلق فوق الجليد محدِثاً صوتاً خفيفاً كزلّاقة التزحلق.

وواصل التفكير قائلاً لنفسه: لعلّ عليّ أن أتصل بها تليفونياً، أتصل بها عند آل مندر وأطلب مكالمتها، فلا مفرّ عندئذٍ من أن تتحدّث معي. سيصل الترام رقم 7 بعد رقم 4 مباشرة، وهو آخر ترام في هذا المساء. بدأ يستشعر البرودة. تمهّل في سيره عبر الميدان، ورأى الترام رقم 7 المضيء إضاءة باهرة يأتي من بعيد. ظلَّ واقفاً أمام كابينة التليفون وهو متردّد، مرسلاً النظر إلى واجهة عرض أحد المتاجر، حيث وضع العارضون تماثيل مختلفة بدلاً من «بابا نويل» والملائكة، ووُضعت أيضاً عرائس لسيّدات يلبسن ثياباً اتسعت فتحتها الأمامية، وقد نثر على أكتافهن العارية قصاصات ورقية، وعلى معاصمهن ثُبّتت أوراق حلزونيّة متموّجة. كان هناك أيضاً تماثيل لرجال ذوي ملامح وسيمة وشعر غزاه الشيب قد أُجلسوا بسرعة على كراسي البار، وعلى الأرضية تناثرت سدادات زجاجات الشمبانيا. نزعوا من إحدى الدمى جناحيها وشعرها. وتعجّب برنيش كيف يتحوّل الملاك إلى «بارمان» بهذه السرعة. وأُلصقت شوارب وشعر أسود مستعار، وعلى الجدران ثُبّتت لافتة بالمسامير: «رأس السنة دون شمبانيا؟».

انتهى عيد الميلاد في هذا المتجر قبل أن يبدأ. قال لنفسه: لعلّ آنّه هي الأخرى كانت صغيرة على الزواج. لم تكن قد جاوزت عامها الحادي والعشرين بعد. في أثناء مشاهدته لصورته المنعكسة على واجهة المتجر الزجاجية لاحظ أن الثلج غطّى شعره كتاجٍ رقيق، مثلما كان يرى في طفولته الثلج يتوّج قوائم السور الخشبي. وخطر على باله أنه ليس من حقّ المسنّين أن يتحدّثوا عن فترة الشباب السعيدة؛ فالإنسان لا يواجه في شبابه إلا الصعوبات. لا أحد يساعد أحداً. وفجأة تعجّب لأنه لم يكره آنّه بسبب صمتها، ولم يتمنَّ الزواج بأخرى. في مثل هذا الموقف فإن كلّ الكلام الذي يصل إلى سمع المرء لا قيمة له: التسامح، الطلاق، البداية من جديد، الزمن كفيل بذلك - كلّ هذا الكلام لا يجدي نفعاً. على

الإنسان أن يعالج الأمر بمفرده: لأنه يختلف عن الآخرين، ولأن آنّه زوجة تختلف عن زوجات الآخرين.

مصمّمو الديكور يثبّتون بالمسامير أقنعةً على الجدار في سرعة بالغة، ويربطون الألعاب النارية في خيط طويل. آخر ترام من خط 7 انطلق منذ مدة طويلة، وصندوق الكرتون وفيه هدايا آنّه يقف وحيداً على الرفّ العلوي.

أنا في الخامسة والعشرين من عمري، ومن أجل كذبة، كذبة صغيرة، كذبة سخيفة كالتي يرتكبها ملايين الرجال كلّ أسبوع أو كلّ شهر، سأُعاقب بقسوة بالغة: ستقذف بي نظرة إلى المستقبل الحجريّ، سأُجبَر على رؤية آنّه وهي متربّعة كأبي الهول أمام تلك الصحراء الحجريّة، وسأرى نفسي كهلاً مصفرّ الوجه من المرارة. أجل، زجاجة التوابل ستكون على الرفّ دائماً، والمملحة على اليمين، وسيُرقّى عمّا قريب إلى درجة رئيس قسم، وسيستطيع إعالة أسرته بيسر، هذه الأسرة الحجرية، ولن يكون في استطاعته بعد الآن أن يرقد على الفراش ويمجّد خلق المساء في تلك الساعة التي تسبق الاستغراق في النوم، وأن يشكر الخالق على أوقات الفراغ الكثيرة؛ وسيبعث للمتزوّجين في حفل زواجهم ببرقيات سخيفة كالتي تلقّاها.

مثل هذه الكذبة عن المرتّب قد تُضحك زوجاتٍ أخريات؛ فالزوجات الأخريات يعلمن أن كلّ الرجال يكذبون على زوجاتهم، لعلّه نوعٌ من الدفاع الطبيعي عن النفس، ولكي يدافعن عن أنفسهن فقد اخترعن هنّ أيضاً أكاذيبهنّ. لكنّ وجه آنّه تحجّر. ثمة كتب كثيرة عن الزواج، وقد قرأ في هذه الكتب ما الذي يفعله الإنسان إذا تعرّض شيءٌ في الزواج للفشل؛ ولكنه لم يجد في أيّ كتاب سطراً عن زوجة تحجّرت. ورد في الكتب كيف تنجب أطفالاً، وكيف لا تنجب، ورد الكثير من الكلام العظيم والجميل، ولكن الكلام البسيط لم يكن له أثر.

انتهى مصمّمو الديكور من عملهم. الورق الفضّي الحلزوني المتموّج معلّق الآن على أسلاك تكاد تكون غير مرئية. رأى في خلفيّة المتجر رجلاً يختفي وتحت إبطه ملاكان، بينما أخذ

الآخر ينثر قصاصات الورق على أكتاف الدمية العارية، ويعدّل من وضع لافتة «رأس السنة دون شمبانيا؟».

نفض برنيش الثلج عن شعره، ثم مشى عبر الميدان راجعاً إلى ساحة المحطة، وما كاد يُخرِج إيصال الأمانات للمرة الرابعة باسطاً إيّاه حتى أسرع وكأنه لم يعد لديه ثانية واحدة ليفقدها. ولكنّ شبّاك الأمانات كان مغلقاً، وأمام قضبانه قرأ لافتة مكتوب عليها: «يُفتَح قبل وصول القطارات أو انطلاقها بعشر دقائق». وضحك برنيش، ضحك لأول مرة منذ الظهيرة، ونظر إلى صندوق الكرتون الذي بدا كالسجين فوق الرفّ الأعلى وراء القضبان. كان جدول مواعيد وصول القطارات وانطلاقها معلّقاً بجانب الشبّاك. وجد أن القطار التالي لن يصل إلا بعد ساعة. لا أستطيع أن أنتظر ساعة كاملة، ولن أجد في مثل هذا الوقت المتأخر باقة زهور أو قالب شيكولاته، أو حتى كتيّب، وآخر ترام من خط 7 قد انطلق. ولأول مرة في حياته فكّر في أن يستقلّ سيارة أجرة. عندما اجتاز ساحة المحطة قاصداً سيارة أجرة، شعر أنه قد غدا إنساناً بالغاً ناضجاً، وفي الوقت نفسه أحمق بعض الشيء.

جلس في مقعد السيارة الخلفي ممسكاً بنقوده في يده: عشرة ماركات، آخر ما بقي معه من نقود، كان قد ادّخرها ليشتري لآنّه هدية أخرى تُدخل السرور إلى قلبها، ولكنه لم يجد هدايا يمكن أن تسرّها. وها هو ذا الآن يجلس ممسكاً بنقوده الأخيرة في يده، مراقباً عدّاد سيارة الأجرة الذي يقفز كلّ فترة وجيزة، بدت له فترة وجيزة للغاية، بفنكاً آخر، وفي كلّ مرّة يكاد يصيبه الصوت -الذي يُحدثه العدّاد عند كلّ رقم جديد- في قلبه، على الرغم من أن العدّاد لم يكن قد سجّل أكثر من 2.8 مارك. سأرجع إلى المنزل بلا زهور، بلا هدايا، جائعاً، متعباً، وغبيّاً. وخطر على باله أنه كان يستطيع بالتأكيد شراء شيكولاته من صالة الانتظار في المحطة.

خلت الشوارع من المارّة. خفتَ صوت السيارة تماماً وهي تسير فوق الثلج. استطاع برنيش أن يرى خلف نوافذ البيوت المزيّنة بمصابيح صغيرة مُنارة أشجارَ عيد الميلاد ترسل أضواءها الملوّنة: بدا له الفارق شاسعاً بين عيد الميلاد، كما عاشه وهو طفل وكما أحسّ به

اليوم؛ الأحداث الهامة والعظيمة لا علاقة لها بالتقويم المعتاد، فعيد الميلاد، في الصحراء الحجريّة، يمرّ كأيّ يومٍ من أيام العام، وعيد القيامة يشبه يوماً مطيراً في شهر نوفمبر. ثلاثون، أربعون تقويماً تمرّ عليك، ولا يتبقّى، إذا لم تنتبه، سوى حامل التقويم المعدني وعليه بقايا أوراق متهرّئة.

فزع عندما قال السائق: «وصلنا...»، ثم أحسّ بالراحة عندما نظر إلى عدّاد السيارة فوجد الأجرة 3.40 ماركات. انتظر نافد الصبر حتى حصل على باقي الماركات الخمسة. انشرح صدره عندما رأى ضوءاً ينبعث من الحجرة في الدور العلويّ حيث فراش آنّه بجانب فراشه. عقد عزمه على ألّا ينسى لحظة الراحة هذه أبداً. ما كاد يُخرج مفتاح المنزل ويُدخله في ثقب الباب حتى أحسّ بذلك الشعور السخيف مرّة أخرى، ذلك الشعور الذي انتابه عندما استقلّ سيارة الأجرة: شعر بأنه قد غدا إنساناً ناضجاً، وفي الوقت نفسه أحمق بعض الشيء.

رأى شجرة عيد الميلاد فوق مائدة المطبخ. كانت هناك أيضاً هدايا له: جوارب وسجائر وقلم حبر جديد، وتقويمٌ سنويٌّ جميل بالألوان يستطيع أن يعلّقه فوق مكتبه. الحليب في الإناء فوق الموقد، ما عليه سوى أن يُشعل الغاز. السندوتشات على الطبق. ولكن هذا ما يحدث كلّ يوم، حتى منذ أصبحت آنّه لا تتبادل معه الحديث؛ ثم إنّ وضع شجرة عيد الميلاد وإعداد الهدايا مثله مثل إعداد السندوتشات: واجب، وآنّه تؤدي دائماً ما عليها من واجبات. لم تكن له رغبة في شرب الحليب، وشرائح الخبز اللذيذة لم تُثر شهيّته أيضاً. مشى عبر الممرّ الضيّق ولاحظ على الفور أن آنّه كانت قد أطفأت النور، ولكن باب حجرة النوم ظلَّ مفتوحاً. نادى بصوتٍ خافت داخل الجدران الأربعة غير منتظر إجابة: «آنّه، هل أنت نائمة؟!»، وشعر بوطأة الانتظار عليه ثقيلة، وكأنه ألقى بسؤاله في بئرٍ لا قرار له. ابتلع الصمت المظلم في الحجرة المظلمة كلّ ما ينتظره خلال ثلاثين أو أربعين عاماً قادمة، وعندما قالت آنّه: «لا»، اعتقد أنه أخطأ السمع. لعلّه كان خداعاً. واصل الحديث بسرعة وبصوتٍ عالٍ: «لقد ارتكبت حماقة. أودعت الهدايا التي اشتريتها لك في أمانات المحطة، وعندما أردت استردادها كان الشبّاك قد أغلق، ولم أُرد الانتظار. هل أخطأت؟». في تلك

المرّة كان متأكّداً من سماع «لا»، ولكن من الواضح أيضاً أنّ «لا» هذه لا تأتي من ركن الحجرة حيث يوجد فراشهما. لا بدّ أن آنّه نقلت فراشها تحت النافذة. «اشتريت مظلّة وكتابين وبيانو صغيراً من الشيكولاته في ضخامة المعجم، أصابعه من اللوزيّة والمكسّرات المهروسة»، ولم يكمل منتظراً الإجابة في إصغاء، ولكن لم يأتِ من جنبات الحجرة إلا الصمت. وحين سألها: «هل أنت سعيدة؟»، جاءت: «نعم» أسرع من «لا» السابقتين.

أطفأ نور المطبخ، وخلع ثيابه في الظلام، ورقد على فراشه. من خلال الستائر كان يرى أشجار عيد الميلاد في المنزل الواقع أمامهما، ومن الدور السفلي تناهى إلى سمعه غناء. ها هو ذا يستقبل ساعته المحبوبة مرة أخرى. لقد تلقّى إجابتَيْ «لا» وواحدة «نعم». وعندما اقتربت سيارة عبر الشارع رسمت الكشّافات بروفيل آنّه الآتي من الظلام.

(*******) المقصود بذلك هو تكسير أوانٍ خزفية أمام باب العروسين في الليلة السابقة للعُرس، وهي عادة ألمانية قديمة مبعثها الاعتقاد بأن القطع المهشّمة تجلب السعادة للعروسين وتطرد الأرواح الشريرة عن البيت. [م]

(********) نص الآيات هو: «في البدء خلق الله السموات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرفّ على وجه المياه. وقال الله ليكن نور فكان نور. ورأى الله النور أنه حسن. وفصل الله بين النور والظلمة. ودعا الله النور نهاراً والظلمة دعاها ليلاً. وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً». وهي أولى الآيات في سفر التكوين، أول أسفار التوراة. [م]

كما يحدث في الروايات السيّئة

كنّا قد دعونا آل تسومبن لقضاء الأمسية معنا، وهم أناسٌ لطفاء أدين بالتعرّف إليهم إلى حمي، الذي يسعى منذ زواجي بابنته إلى أن يعرّفني بالذين يستطيعون إفادتي في مجال العمل، وتسومبن يستطيع أن يفيدني: فقد كان رئيس إحدى اللجان التي تفصل في المناقصات المقدّمة لبناء المجمّعات السكنية الكبيرة، وأنا، بزواجي، قد أصبحت أملك شركة لأعمال الحفر.

كنت عصبيّاً في ذلك المساء، لكن زوجتي برتا أخذت تهدّئني قائلةً: «إنّ مجرّد مجيئه يعني شيئاً.. كلّ ما عليك هو أن تحاول توجيه الحديث بحرص إلى موضوع المناقصة، أنت تعلم أنها سوف ترسو غداً!».

وقفت خلف ستارة باب البيت منتظراً تسومبن. أخذت أدخّن ثم دهست عقب السيجارة بقدمي، وألقيت بدوّاسة الأقدام فوقه. بعد ذلك بقليل وقفت خلف شبّاك الحمّام أفكّر في ما جعل تسومبن يقبل الدعوة، فهو لا يعنيه كثيراً أن يتناول العشاء لدينا، كما أن عقد المناقصة الكبيرة التي اشتركت فيها سيرسو غداً، فالمفروض أن يكون الأمر محرجاً بالنسبة له، كما كان بالنسبة لي. أخذت أفكّر في العقد أيضاً: كان عقداً ضخماً، سأربح من ورائه 20000 مارك، وكنت أتلهّف للحصول على النقود.

كانت برتا قد اختارت بدلتي: جاكيت داكن، بنطال أفتح قليلاً، وربطة عنق محايدة اللون. مثل هذه الأشياء تعلّمتها في بيت أبيها، وفي المدرسة الداخلية على يد الراهبات. تعلّمت أيضاً ماذا يُقدَّم للضيوف: متى يُقدّم الكونياك، أو الفيرموت، وكيف تُنسّق الحلويات. من المريح أن يكون لديك زوجة تتقن مثل هذه الأشياء.

ولكن برتا كانت عصبية أيضاً، وعندما وضعت يديها على كتفي ولمستا عنقي، أحسست برطوبة إصبعي الإبهام وبرودتهما. قالت: «سيسير كلّ شيء على ما يرام.. ستحصل على

المناقصة». فقلت: «يا إلهي! سأكسب من وراء ذلك 20000 مارك، وأنت تعلمين كم نحن بحاجة إلى هذا المبلغ». فردّت بصوت خفيض: «لا ينبغي علينا أبداً أن نذكر اسم الله مقترناً بالنقود!». توقّفت سيارة داكنة اللون أمام منزلنا، لم أعرف ماركتها، ولكنها بدت إيطالية الصنع. همست برتا: «تمهّل، انتظِر حتى يدقّوا الجرس، دعهم يقفون ثانيتين أو ثلاثاً، ثم اذهب إلى الباب ببطء وافتح!».

رأيت آل تسومبن يصعدون الدرج: هو طويل القامة رشيقها، قد غزا الشيب فوديه، واحد من أولئك الذين كان يُطلق عليهم في الثلاثينيات لقب «فهلوي». أما السيّدة تسومبن فهي من أولئك النساء النحيفات السمراوات اللاتي إذا نظرت إليهن فلا بدّ أن أفكّر في الليمون. حدّقت في وجه تسومبن الذي ارتسمت عليه علامات الملل الفظيع لتناوله العشاء معنا.

ثم دقّ الجرس، وانتظرت ثانية، ثانيتين، ثم ذهبت ببطء إلى الباب وفتحته قائلاً: «أهلاً وسهلاً، شرّفتمونا بزيارتكم!». وتجوّلنا في الشقّة وكؤوس الكونياك في أيدينا، بعد أن أبدى آل تسومبن رغبتهما في التفرّج عليها. بقيت برتا في المطبخ حتى تضع المايونيز -مفرغةً إياه من أنبوبة- على المشهّيات، وترسم به أشكالاً لطيفة: قلوباً، وخطوطاً متموّجة، وبيوتاً صغيرة. أعجبت شقّتنا آل تسومبن. تبادلا الابتسام عندما رأيا المكتب الضخم في حجرة عملي، في تلك اللحظة بدا المكتب في عيني أيضاً ضخماً بعض الشيء.

امتدح تسومبن خزانة صغيرة من طراز الروكوكو أهدتها لي جدّتي بمناسبة زواجي، وكذلك تمثالاً باروكياً للسيّدة العذراء في حجرة نومنا.

عندما رجعنا إلى حجرة الطعام كانت برتا قد أعدّت المائدة، وهو ما فعلته بطريقة لطيفة أيضاً: جميلة جدّاً وطبيعية جدّاً في الوقت نفسه. أكلنا في جوّ يبعث على الراحة. تبادلنا الأحاديث حول الأفلام والكتب والانتخابات الأخيرة. أثنى تسومبن على أصناف الجبن المختلفة، بينما امتدحت السيّدة تسومبن القهوة والكاتوه. ثم أرينا آل تسومبن صورنا في رحلة شهر العسل: صور على أحد شواطئ إسبانيا، وحمير إسبانية، ومناظر لشوارع في الدار البيضاء.

احتسينا الكونياك بعد ذلك مرة أخرى، وعندما أردت النهوض لأحضر صندوق الكرتون الذي يحوي صور فترة الخطوبة أعطتني برتا إشارة، ولم أُحضر الصندوق. ثم ساد الصمت التام لدقيقتين، لأننا لم نعد نجد مادة للحديث، واتجه تفكيرنا جميعاً إلى المناقصة: فكّرت في العشرين ألف مارك، وخطر على بالي أنني أستطيع أن أخصم ثمن زجاجة الكونياك من الضرائب. ثم نظر تسومبن إلى ساعته قائلاً: «ياه.. الساعة الآن العاشرة.. لا بدّ أن ننصرف. كانت أمسية لطيفة للغاية!». وقالت السيّدة تسومبن: «كانت رائعة.. آمل أن أراكما ذات يوم في منزلنا». فردّت برتا: «بكلّ سرور». ووقفنا قرابة نصف دقيقة، واتجه تفكيرنا جميعاً إلى المناقصة مرة أخرى، وأحسست أن تسومبن ينتظر أن أنتحي به وأكلّمه عن المناقصة. لكنني لم أفعل. قبّل تسومبن يد برتا، وتقدّمتهم أنا فاتحاً الأبواب. وفي الشارع فتحت باب السيارة للسيّدة تسومبن.

قالت برتا برفق: «لماذا لم تتحدّث معه عن المناقصة؟ أنت تعلم أنها سترسو غداً». فأجبت: «يا إلهي، لم أعرف كيف أوجّه الحديث إلى هذا الموضوع»، فردّت برفق: «يا رجل! كان يجب أن تطلب منه، تحت أي حجّة، أن يذهب إلى غرفة مكتبك، وهناك كان عليك أن تحدّثه. من المؤكّد أنك لاحظت أنه يهتمّ بالفن اهتماماً بالغاً. كان عليك أن تقول: ما زال لديّ صليبٌ يُعلّق على الصدر من القرن الثامن عشر، قد يهمّك أن تراه، ثم...».

لم أنطق، أما هي فتنهّدت وربطت حزام المريلة حول خصرها. وتبعتها إلى المطبخ، ورتّبنا ما تبقّى من المشهّيات ووضعناه في الثلّاجة، وانحنيت على الأرض باحثاً عن غطاء أنبوبة المايونيز، ثم أعدت زجاجة الكونياك إلى مكانها، وأحصيت السيجار: لقد دخّن تسومبن واحداً فقط. أفرغت منافض السجائر، ثم أكلت قطعة كاتوه على الواقف، وألقيت نظرة في برّاد القهوة لأرى ما إذا كان هناك قهوة متبقية. عندما عدت إلى المطبخ كانت برتا واقفة هناك ومفتاح السيارة في يدها.

وسألت: «ما الخبر؟».

فأجابت: «طبعاً، لا بدّ أن نذهب إلى هناك».

- إلى أين؟

- إلى أين؟ إلى آل تسومبن طبعاً؟

- الساعة تقترب من العاشرة والنصف مساء.

- حتى لو كنّا في منتصف الليل. حسب علمي فإن الأمر يدور حول 20000 مارك، ولا تظنّ أنهم حسّاسون إلى هذه الدرجة!

وذهبت إلى الحمّام لتهيّئ نفسها، ووقفتُ خلفها أرقبها وهي تزيل ما على شفتيها، ثم تعيد دهنها من جديد. ولأوّل مرة أنتبه إلى اتساع هذا الفم وبلاهته. وعندما عقدت ربطة العنق كان من الممكن أن أقبّلها، كما كنت أفعل في كلّ مرّة، لكنّني لم أقبّلها.

كان الضوء يسطع في مقاهي المدينة ومطاعمها، وقد جلس الناس في الشرفات الخارجية، وتلألأ ضوء المصابيح على كؤوس وأكواب الآيس كريم الفضّيّة. نظرت برتا إليّ مشجّعة، ولكنّها بقيت في السيارة عندما توقّفنا أمام منزل تسومبن. ضغطت فوراً على الجرس، ودُهشت لسرعة فتح الباب. لم تبدُ على السيّدة تسومبن أيّ دهشة لمرآي. كانت ترتدي بدلة منزلية سوداء مطرّزة بالزهور الصفراء وذات رجلي بنطال فضفاضتين. وأكثر من ذي قبل كنت مجبراً أن أفكّر في الليمون. قلت لها: «آسف للإزعاج.. أودّ أن أتحدّث مع زوجك!». فقالت: «إنه ما زال في الخارج، سيعود في خلال نصف ساعة». ورأيت في الممرّ تماثيل عديدة للسيّدة العذراء: من الطراز القوطيّ، والباروكيّ، بل وأيضاً من طراز الروكوكو - إن كان لها وجود من الأساس. قلت لها: «جميل. سأرجع، إذا كنت تسمحين، بعد نصف ساعة!».

كانت برتا قد اشترت جريدة مسائية: أخذت تقرأ وتدخّن، وعندما جلست بجانبها قالت: «أعتقد أنه كان بإمكانك محادثتها هي أيضاً في الموضوع».

- من أين عرفت أنه ليس هناك؟

- لأنني أعرف أنه يجلس في نادي «الغافل» ويلعب الشطرنج، كعادته في مثل هذا الوقت من مساء كلّ أربعاء.

- كان بإمكانك أن تخبريني بذلك من قبل.

فقالت برتا وهي تطوي الجريدة المسائية: «افهمني! إنني أرغب في مساعدتك، أرغب أن تتعلّم كيف تنجز مثل هذه الأعمال وحدك. ما كنا نحتاج سوى الاتصال تليفونياً بأبي وكان سينهي الموضوع بمكالمة تليفونية واحدة، لكني أريد أن تحصل على المناقصة بمفردك».

- جميل. ماذا نفعل إذاً؟ هل ننتظر نصف الساعة، أم نصعد مباشرة ونتحدّث معها؟

- الأفضل أن نصعد مباشرةً.

وهبطنا من السيارة وركبنا المصعد.

قالت برتا: «أهمّ شيء في الحياة هو التوصّل إلى حلول وسط وتقديم تنازلات».

كانت دهشة السيّدة تسومبن ضئيلة، تماماً مثلما كانت عندما جئت بمفردي. حيّتنا وقادتنا إلى غرفة مكتب زوجها. أحضرت السيّدة تسومبن زجاجة الكونياك، وصبّت لنا، وقبل أن أستطيع أن أقول شيئاً عن المناقصة، كانت قد دفعت إليّ ملفّاً أصفر قرأت عليه: «وحدات حيّ الصنوبر السكنية»، ونظرت مرتاعاً إلى السيّدة تسومبن وإلى برتا، ولكنّهما ابتسمتا معاً، وقالت السيّدة تسومبن: «افتح الملفّ!»، وفتحته، وبداخله وجدت ملفّاً آخر ورديّ اللون قرأت عليه: «وحدات حيّ الصنوبر السكنية - أعمال الحفر»، وفتحت أيضاً هذا الغلاف، ورأيت في أعلى الصفحة أرقام العرض الذي قدّمته. كان أحدهم قد كتب بقلم أحمر على الهامش العلوي للصفحة: «أقلّ العروض سعراً».

شعرت باحمرار وجهي من الفرحة، وأحسست بقلبي يدقّ، وأخذت أفكّر في العشرين ألف مارك.

قلت بصوت خافت: «يا إلهي!»، وأغلقت الملف، ونسيَتْ برتا أن تحذّرني هذه المرة، ثم قالت السيّدة تسومبن مبتسمة: «فلنشرب في صحّتكم!».

وشربنا، ثم نهضت قائلاً: «قد يكون الأمر غير لائق، ولكن لعلّك تقدّرين أنني أرغب في الانصراف الآن».

قالت السيّدة تسومبن: «أقدّر ذلك جيّداً، لم يبقَ إلا أمرٌ بسيط لننجزه». ثم أخذت الملف وقلّبت أوراقه قائلة: «سعر المتر المكعّب عندك أقل بثلاثين بفنكاً عن السعر التالي في الرخص. أقترح أن ترفع السعر 15 بفنكاً أخرى، وستظلّ الأقل سعراً، بل وستربح فوق ذلك 4500 مارك. هيّا، فلتفعل ذلك الآن!». أخذت برتا قلم الحبر من حقيبة يدها وناولتني إياه، ولكنّني كنت مضطرباً حتى إنني لم أستطع الكتابة، فأعطيت الملفّ لبرتا، وأخذت أراقبها وهي تعدّل ثمن المتر بيد ثابتة، وتعيد كتابة المبلغ الإجمالي، ثم أرجعت الملفّ إلى السيّدة تسومبن التي قالت: «والآن لا يتبقّى إلا شيءٌ آخر بسيط. خذ دفتر شيكاتك، ووقِّع على شيك بثلاثة آلاف مارك، يجب أن يكون الشيك لحامله ومخصوماً من حسابك». كان الكلام موجّهاً إليّ، ولكن برتا هي التي أخذت دفتر شيكاتنا من حقيبتها، ووقّعت الشيك.

قلت بصوت خفيض: «سيكون بلا رصيد»، فقالت السيّدة تسومبن: «ستتقاضى مقدّماً عند رسوّ المناقصة عليك، عندئذٍ سوف يغطّي رصيدك المبلغ!».

ربما استعصى عليّ فهم ذلك وقت حدوثه. أثناء هبوطنا بالمصعد قالت برتا إنها تشعر بالسعادة، لكنني لزمت الصمت. اختارت برتا طريقاً آخر، وقادت السيارة عبر أحياء هادئة، رأيت الضوء في النوافذ المفتوحة والناس جالسين في الشرفات يحتسون النبيذ. كانت ليلة مضيئة دافئة.

لم أسأل برتا إلا سؤالاً واحداً بصوتٍ منخفض: «هل كان الشيك لتسومبن؟»، وأجابت بصوت منخفض كذلك: «طبعاً». ونظرت إلى يدي برتا الصغيرتين المائلتين للسمرة اللتين تقود بهما السيارة في ثبات وهدوء، وقلت لنفسي: «يدان توقّعان على الشيكات.. وتضغطان

على أنابيب المايونيز». ثم اتجهت ببصري إلى أعلى، إلى فمها، ولم أشعر في تلك اللحظة أيضاً برغبة في تقبيله.

لم أساعد برتا في ذلك المساء في إدخال السيارة إلى الكراج، كما لم أساعدها في غسل الأطباق. أخذت كأساً كبيراً من الكونياك وصعدت إلى حجرة مكتبي.

جلست إلى مكتبي الذي كان ضخماً للغاية بالنسبة لي، فكّرت في شيءٍ ما، ثم نهضت وذهبت إلى حجرة النوم ونظرت إلى تمثال العذراء الباروكيّ، ولكنّي لم أعد أتذكّر هناك في أي شيء كنت أفكّر.

قطع رنين التليفون تفكيري. رفعت السماعة ولم أدهش لسماع صوت تسومبن الذي قال: «لقد أخطأت زوجتك سهواً، فهي لم ترفع سعر المتر 15 بل 25 بفنكاً».

فكّرت لحظة ثم قلت: «لم يكن هذا خطأ، لقد تمّ بموافقتي».

فلاذ بالصمت أولاً، ثم قال ضاحكاً: «أي إنكم ناقشتم كلّ الإمكانيات الأخرى من قبل؟».

- نعم.

- جميل، فلتوقّع إذاً على شيك آخر بـ 1000 مارك!

- 500.

وقلت لنفسي: تماماً كما يحدث في الروايات السيّئة، إنه كذلك بالضبط.

أجابني: 800، فقلت ضاحكاً: 600.

كنت أعلم، على الرغم من انعدام خبرتي، أنه سيقول الآن 750، وعندما قالها بالفعل وافقت، ووضعت السمّاعة.

لم يكن الليل قد انتصف بعد عندما هبطت الدرج محضِراً الشيك لتسومبن في السيارة. كان بمفرده. ضحك عندما سلّمته الشيك المطوي. وحينما عدت إلى المنزل متمهّلاً لم يكن لبرتا أيّ أثر: لم تأتِ عندما رجعت إلى حجرة المكتب، ولم تأتِ عندما هبطت مرة أخرى لأحضر لنفسي كوباً من الحليب من الثلّاجة. كنت أعرف فيمَ تفكر، إنها تقول لنفسها: لا بدّ أن يتجاوز ذلك، يجب أن أدعه بمفرده، عليه أن يفهم ذلك.

ولكنني لم أفهم ذلك أبداً. لقد كان أيضاً شيئاً لا يمكن فهمه.

سيحدث شيء

(قصة غزيرة الأحداث)

من أغرب فترات حياتي هي، بلا شكّ، تلك الفترة التي قضيتها موظّفاً في مصنع ألفريد فونزيدل. إنني بطبيعتي إنسان أميل إلى التأمل واللافعل أكثر من العمل، لكن بين الحين والآخر تجبرني صعوبات مالية مستديمة -فالتأمل مثله مثل اللافعل لا يُدرّ شيئاً- على قبول ما يسمّى بالوظيفة. وبعد أن وصلت مرّة أخرى إلى الحضيض، وضعت ثقتي في مكتب العمل الذي أرسلني مع سبعة من المنكوبين مثلي إلى مصنع فونزيدل، حيث كان ينبغي علينا أن نؤدّي اختبار القبول.

بمجرّد رؤيتي للمصنع ملأتني الريبة: كان المصنع كلّه مكسوّاً من الخارج بألواح الزجاج الشفّاف، ونفوري من كل المباني والأماكن التي يغمرها الضوء يبلغ درجة نفوري من العمل. ملأتني الريبة أكثر عندما قُدِّم لنا على الفور إفطار في مطعم المصنع الساطع والمرسوم على جدرانه بألوان مبهجة. فتيات جميلات أحضرن لنا بيضاً وقهوة وشرائح خبز. وعلى الموائد كانت هناك دوارق عصير برتقال شهيّ، وأسماك ذهبية تضغط بوجوهها المتعجرفة على جدار حوض الأسماك الزجاجي الأخضر الزاهي. كانت الفرحة تملأ فتيات المطعم وكأنهنّ على وشك الانفجار من شدّتها، الإرادة القوية وحدها -هكذا بدا لي- هي التي منعتهن من الدندنة المستمرة. كنّ يمتلئن بالأغاني المكتومة كدجاج يحتشد البيض بداخله. وخمّنت على الفور ما بدا أن شركائي المنكوبين لم يخمّنوه: إنّ هذا الإفطار أيضاً جزء من الاختبار. وهكذا انهمكت في المضغ بوعي تام لإنسان يعلم كلّ العلم أنه يمدّ جسمه بمواد عالية القيمة. وفعلت شيئاً لم تكن لتدفعني إليه في المعتاد قوةٌ ما في هذا العالم: شربت على معدة خاوية عصير برتقال، لم أحفل بالقهوة والبيض، وتركت الجزء الأكبر من شرائح

الخبز، ونهضت، وأخذت أذرع المطعم جيئةً وذهاباً وكلّي تشوّق للفعل كامرأة حامل تنتظر ولادة طفلها.

وهكذا أُدخلت باعتباري أول المتقدّمين إلى حجرة الاختبار. كانت الأسئلة المطبوعة موضوعة على موائد جذّابة الشكل في غرفه مدهونة جدرانها بدرجة من درجات اللون الأخضر تجعل كلمة «ساحر» تقفز على شفاه المهووسين بالأثاث الحديث. لم يكن هناك أحد، ومع ذلك كنت متأكّداً للغاية من أنني مراقب، لهذا سلكت كما يسلك الإنسان المتشوّق للفعل حينما يعتقد أنه غير مُراقب: بنفاد صبر انتزعت قلمي الحبر من الحقيبة، أدرت الغطاء العلوي حتى فتحته، جلست إلى أقرب طاولة، وخطفت ورقة الأسئلة كما يسحب الإنسان العصبيّ فاتورة المطعم.

السؤال الأول: لا يملك الإنسان إلا ذراعين وقدمين وعينين وأذنين - هل تعتبر ذلك صواباً؟

وهنا جنيت لأول مرة ثمار تأملاتي، فكتبت بلا تردّد: «ولا أربعة أذرع وأقدام وآذان تستطيع أن تروي تعطّشي للفعل. إن أعضاء الإنسان تعاني من نقص حاد».

السؤال الثاني: كم عدد التليفونات التي يمكنك الرد عليها في وقت واحد؟

وهنا أيضاً كانت الإجابة في سهولة حلّ معادلة من الدرجة الأولى: «سيستولي عليّ القلق إذا كانت سبعة فقط، ولن أشعر أن قواي قد استُنفدت تماماً إلا عندما يصل عددها إلى تسعة».

السؤال الثالث: ماذا تفعل بعد الانتهاء من العمل؟

فأجبت: «لم أعد أعرف كلمة "انتهاء العمل"، لقد شطبتها من مفرداتي اللغوية في عيد ميلادي الخامس عشر، ففي البدء كان الفعل».

وحصلت على الوظيفة. وبالفعل لم أشعر حتى مع تسعة تليفونات بنفاد قواي. كنت أهتف في سماعة التليفون: «تصرّف في الحال»، أو: «افعل شيئاً – لا بدّ أن يحدث شيء - سيحدث شيء - لقد حدث شيء - كان من المفروض أن يحدث شيء». إلا أنني في الغالب، فهذا ما بدا لي مناسباً لجوّ العمل، كنت أستعمل صيغة الأمر.

كانت فترات الراحة في الظهيرة شيّقة، فقد كنّا نتناول أطعمة غنيّة بالفيتامينات في مطعم المصنع والفرحة الصامتة تحيط بنا من كل جانب. كان مصنع فونزيدل يحفل بأناس مهووسين بسرد تاريخ حياتهم، مثلما تحب القيام بذلك الشخصيات غزيرة الأفعال. تاريخ حياتهم هو أهمّ عندهم من الحياة نفسها. لا يحتاج المرء إلا أن يضغط على زرّ، وسوف يتقيّؤون سيرتهم على الفور بكلّ فخر.

كان نائب فونزيدل رجلاً اسمه بروشيك، تمتّع هو الآخر بقدر من الشهرة مرجعه أنه وهو طالب كان يعول من خلال العمل الليليّ سبعة أطفال وامرأة مشلولة، وفي الوقت نفسه كان ممثّلاً تجارياً ناجحاً لأربع شركات، وفوق ذلك كلّه فقد اجتاز خلال عامين امتحانين في الجامعة بدرجة امتياز. عندما سأله الصحفيون: «ومتى تنام إذاً يا سيّد بروشيك؟»، أجاب بقوله: «النوم خطيئة». أما سكرتيرة فونزيدل فكانت تعول من خلال شغل الإبرة رجلاً مشلولاً وأربعة أطفال، وفي الوقت ذاته حصلت على درجتَي دكتوراه في علم النفس وجغرافيا الوطن. كانت تربّي أيضاً كلاب الحراسة، كما أصابت شهرة كمغنّية في بار تحت اسم «مصّاصة الدماء 7».

وفونزيدل نفسه كان واحداً من هؤلاء الذين ما يكادون يستيقظون صباحاً حتى يعقدوا النيّة على الفعل. «لا بدّ أن أفعل شيئاً»، يقولونها لأنفسهم وهم يربطون بنشاط حزام روب الحمّام. «لا بدّ أن أفعل شيئاً»، يفكّرون وهم يحلقون ذقنهم، ثم ينظرون بانتصار إلى شعيرات الذقن التي يزيلونها بالماء مع رغوة الصابون من ماكينات الحلاقة: بقايا الشعر هذه كانت أولى ضحايا تعطّشهم للفعل. والأنشطة الأخرى الأكثر خصوصية كانت تولّد عند

هؤلاء الناس نوعاً من الارتياح: الماء ينساب، ورق التواليت يُستهلك. لقد حدث شيء. الخبز يُؤكل، والبيضة تُقشَّر.

حتى الأشياء عديمة الأهمية تبدو عند فونزيدل كأنها أحداث: الطريقة التي يضع بها القبّعة على رأسه، الطريقة التي -وهو يهتزّ من النشاط اهتزازاً- يزرّر بها المعطف، القبلة التي يطبعها على فم زوجته؛ كلّ شيء فعل.

عندما يدخل مكتبه يبادل سكرتيرته التحية قائلاً: «لا بدّ أن يحدث شيء!»، وتردّ هي الأخرى والبهجة تطلّ من عينيها: «سيحدث شيء!». عندئذٍ يتنقّل من قسمٍ إلى آخر ملقياً جملته في مرح: «لا بدّ أن يحدث شيء!»، ويردّ الجميع: «سيحدث شيء!». وأنا أيضاً كنت أقول له متهلّل الأسارير عندما يمرّ على حجرتي: «سيحدث شيء!». في خلال الأسبوع الأول ارتفعتُ بعدد المكالمات التليفونية التي أردّ عليها إلى إحدى عشرة مكالمة، في خلال الأسبوع التالي إلى ثلاث عشرة. وكان مما يبهج نفسي أن أخترع صباحاً في الترام صيغ أمر جديدة، أو أن أتعقّب فعل «يحدث» في جميع الأزمنة، ومع مختلف الضمائر، وفي كلّ الصيغ النحوية. لمدة يومين لم أكن أنطق إلا بجملة واحدة، لأنني وجدتها في غاية الجمال: «كان لا بدّ أن يحدث شيء». ثم لمدة يومين آخرين جملة ثانية: «لم يكن ينبغي أن يحدث ذلك».

إلا أنني بدأت أشعر حقيقةً أن قواي قد استُنفِدت عندما حدث بالفعل شيء. ما كدت أستقر على مقعدي في صباح أحد أيام الثلاثاء حتى انقضّ عليّ فونزيدل في حجرتي، وتلا جملته: «لا بدّ أن يحدث شيء!». لكن شيئاً ما على وجهه لا أستطيع تفسيره جعلني أتردّد في الردّ عليه بسرور وغبطة كما تقتضي اللوائح: «سيحدث شيء!». من المؤكّد أن تردّدي طال أكثر من اللازم، إذ إنّ فونزيدل، الذي نادراً ما يرفع صوته، زأر في وجهي: «أجِب، أجِب كما تنصّ اللوائح!»، فأجبت بصوتٍ خافت ومضطرّاً كطفلٍ يجبرونه على قول: أنا طفل شرّير. لم ألفظ بالجملة إلا بجهدٍ جهيد: «سيحدث شيء!»، وما كدت أنطقها حتى حدث بالفعل شيء: تهاوى فونزيدل على الأرض وتدحرج أثناء وقوعه إلى أن استقرّ راقداً على

جنبه بعرض الباب المفتوح . أدركت على الفور ما حدث، وهو ما تأكّدت منه عندما درت حول مكتبي مقترباً من المطروح على الأرض: لقد سقط ميّتاً.

تخطّيت فونزيدل وأنا أهزّ رأسي، ومشيت ببطء خلال الممرّ حتى حجرة بروشيك، ودخلت دون أن أطرق الباب. كان بروشيك جالساً إلى مكتبه، يمسك في كلٍّ من يديه سماعة تليفون، في فمه قلمٌ جافّ يدوّن به ملاحظات على دفتر صغير، بينما كان يعمل بقدميه الحافيّتين على ماكينة تريكو موضوعة تحت مكتبه. بهذه الطريقة يساهم في استكمال الناقص من ملابس عائلته. همست قائلاً: «لقد حدث شيء!». بصق بروشيك القلم من فمه، ووضع سماعتَي التليفون، وبتردّد خلّص أصابع قدميه من ماكينة التريكو، وسألني: «وماذا حدث؟».

فقلت: «مات السيّد فونزيدل!».

فقال بروشيك: «لا!».

- بلى. تعال معي!

- لا. هذا غير معقول!

ومع ذلك دسَّ قدميه في خُفّه وتبعني عبر الممرّ. وعندما وقفنا بالقرب من جثة فونزيدل قال: «لا، لا، لا!». لم أعارضه، وأدرت فونزيدل بحرص حتى رقد على ظهره، وأغلقت عينيه، ونظرت إليه متأملاً. رقّ قلبي له، واتضح لي لأول مرة أنني لم أكرهه قطّ. بدا وجهه كوجوه الأطفال الذين يرفضون بعناد أن يتخلّوا عن إيمانهم بالوجود الفعليّ لرجل عيد الميلاد، على الرغم من أن كل الحجج التي يسوقها زملاؤهم تبدو مُفحمة.

وهتف بروشيك: «لا. لا!».

فقلت له بصوت خافت: «لا بدّ أن يحدث شيء!».

أجابني قائلاً: «نعم. لا بدّ أن يحدث شيء!».

وحدث شيء: دُفن فونزيدل، وانتُدبتُ أنا لكي أحمل إكليلاً من الورد الاصطناعي خلف نعشه؛ إذ إنّ الطبيعة لم تمنحني نزعة إلى التأمل واللافعل فحسب، بل أيضاً هيئة ووجهاً كأنهما خُلقا للبدل السوداء. لا بدّ أن منظري كان رائعاً وأنا أسير وفي يدي إكليل من الزهور الاصطناعية خلف نعش فونزيدل، لذا تلقّيت عرضاً من أحد مكاتب الدفن الأنيقة لكي أمتهن السير وراء الجنازات. «لقد ولدت لتسير وراء الجنازات» -قال لي مدير مكتب الدفن- «سنعطيك ملابس خاصة من عندنا. وجهك، باختصار، رائع!».

قدّمت استقالتي لبروشيك متعلّلاً بأنني لا أشعر في المصنع أن طاقتي قد استُغلّت تماماً، وأن جزءاً من إمكانياتي ما زال مُعطّلاً على الرغم من التليفونات الثلاثة عشر. بعد أول جنازة سرت وراءها بصفة مهنيّة شعرت على الفور أن مكاني هنا، وأن هذا هو العمل المناسب لي.

متأملاً أقف خلف النعش في الكنيسة الصغيرة في المدافن، وفي يدي باقة زهر بسيطة أثناء عزف مقطوعة «لارغو» لهاندل، وهي مقطوعة موسيقية لم تنل حقّها من الاهتمام. أتردّد بانتظام على قهوة المدافن، حيث أقضي أوقات فراغي بين الجنازات التي أُكلَّف بالسير وراءها، إلا أنني أحياناً أسير أيضاً خلف نعوش دون أن أتقاضى شيئاً. أشتري من جيبي باقة ورد، وأنضمّ إلى موظّف مكتب الرعاية الاجتماعية الذي يسير وراء نعش أحد المتشرّدين. بين حينٍ وآخر أزور قبر فونزيدل أيضاً، فإليه يرجع الفضل أولاً وأخيراً أنني اكتشفت مهنتي الحقيقية؛ مهنةٌ المطلوب مني فيها هو التأمل، واللافعل هو واجبي. لم يخطر على بالي إلا متأخراً أنني لم أهتم أبداً بما كان يُنتَج في مصنع فونزيدل. لا بدّ أنه كان صابوناً.

حكاية عن هبوط أخلاقيات العمل

في أحد الموانئ الواقعة على الشاطئ الغربي لأوروبا، استلقى رجل رثّ الثياب في قارب صيد يملكه وغفا. كان سائحٌ أنيق الملبس قد فرغ لتوّه من وضع فيلمٍ ملوّن جديد ليلتقط صورة لهذا المنظر الخلّاب: سماء زرقاء، بحر كساه اللون الأخضر تتابعت أمواجه في وداعة يعلوها زبدٌ ناصع البياض، قارب أسود، و«بيريه» الصيّاد الأحمر. «كليك». ثم صورة أخرى: «كليك». ولأن الثالثة ثابتة، والاحتياط واجب، فلقد التقط الصورة الثالثة: «كليك». هبط الصوت الخشن كالقضاء المستعجل على الصيّاد النعسان فأيقظه. اعتدل الصيّاد والنوم ملء جفنيه، وأخذت يده -والنوم ملء جفنيه- تتصيّد علبة سجائره، ولكن قبل أن تصل إليها يده كان السائح المتحمّس قد مدَّ علبةً حتى أصبحت قرب أنفه، ولم يضع له السيجارة بين شفتيه، بل وضعها في كفّه، ثم «كليك» للمرة الرابعة؛ تلك المرة كان صوت الولّاعة هو الذي أنهى هذا التهذّب الأهوج. وبسبب هذه الحركات السريعة، التي تنمّ عن مبالغة في التهذّب حيال الصيّاد، وهي مبالغة ليس لها أدنى تعليل أو سبب، تولّدت حيرة مشوبة بالتوتّر، حاول السائح المتمكّن من لغة البلد أن يتغلّب عليها بالتحدّث مع الصيّاد:

- سيكون صيدك اليوم وفيراً.

هزّة رأس نافية من الصيّاد.

- لكنني سمعت أن الطقس ملائم؟

إيماءة موافَقة من الصيّاد.

- فأنت إذاً لن تخرج للصيد؟

الصيّاد يهزّ رأسه بالنفي، والسائح تزداد عصبيّته.

لا شكّ أن مصلحة هذا الإنسان الرثّ الثياب قد شغلت باله، ولذلك أحزنه أن يُضيّع فرصة الصيد هذه.

- آه، لا بدّ أنك مريض!

أخيراً انتقل الصيّاد من لغة الإشارة إلى لغة الكلام: «أنا في خير حال. لم أشعر قطّ بأنني أحسن من ذلك».

ونهض وتمطّى، كأنه أراد أن يستعرض جسمه الرياضي.

- إنني في أسعد حال.

تعبيرات وجه السائح تزداد تعاسة. لم يعد يستطيع أن يكتم السؤال الذي كاد يعتصر قلبه: «ولماذا لم تخرج للصيد إذاً؟!».

وجاءت الإجابة سريعة مختصرة: «لأنني خرجت صباح اليوم».

- وهل كان الصيد وفيراً؟

- كان وفيراً لدرجة أنني لا أحتاج إلى الخروج للصيد مرة أخرى. اصطدت أربعة سرطانات كبيرة، وقرابة دستتين من أسماك الماكريل.

وتدفّق الصيّاد، الذي أفاق أخيراً، في الحديث، وربّت على كتفَي السائح مهدّئاً. بدا للصيّاد أن ملامح وجه السائح القلقة تُعبّر عن هموم لا أساس لها، إلا أنها أثّرت فيه، فقال ليخفّف عن هذا الأجنبي: «أنا حتى عندي ما يكفيني غداً وبعد غد. أتدخّن من سجائري؟».

- نعم، شكراً.

سيجارة في كلّ فم. «كليك» لخامس مرة. جلس الأجنبيّ على حافة القارب هازّاً رأسه مستنكراً.

ترك آلة التصوير من يده، فهو بحاجة الآن إلى كلتا يديه ليدعم حديثه بإشارات منها. قال: «لا أريد التدخّل في شؤونك الخاصة، ولكن، تخيّل معي أنك خرجت للصيد مرة أخرى اليوم، ومرة ثالثة، أو حتى رابعة. ستصطاد ثلاث، أربع، خمس، أو حتى عشر دستات من أسماك الماكريل.. تخيّل هذا!».

الصيّاد يومئ موافقاً، والسائح يكمل كلامه: «وستفعل هذا ليس اليوم فحسب، وإنما غداً، وبعد غد.. أي في كلّ يومٍ مناسب ستخرج للصيد مرّتين، ثلاثاً، أو حتى أربع مرات.. هل تعرف ماذا سيحدث؟».

الصيّاد يهزّ رأسه نافياً.

- في خلال عام على الأكثر ستستطيع أن تشتري محرّكاً، وخلال عامين قارباً آخر، وبعد ثلاثة أو أربعة أعوام قد يمكنك أن تمتلك زورق صيدٍ صغيراً، وباستخدام القاربين أو الزورق ستصطاد بالطبع أكثر من الآن بكثير. وفي يوم ما ستمتلك زورقين، وسوف...

وعقد الحماس لسانه لبضع لحظات.

- سوف تبني ثلّاجة أسماك صغيرة، وقد يمكنك أن تُنشئ مصنعاً لتدخين الأسماك، ثم آخر لتمليحها وتعليبها، وتطير بهليكوبتر خاصة بك، وتحدّد أماكن تجمّع الأسماك، وتعطي زوارقك التعليمات باللاسلكي، وتستطيع أن تمتلك امتياز صيد السالمون، وتفتح مطعماً للأسماك، وتصدّر سرطان البحر مباشرة ودون وسطاء إلى باريس، ثم...

وعقد الحماس لسان الأجنبي مرة أخرى. هازّاً رأسه في استنكار تطلّع السائح إلى الموجة المتهادية في سلام، والتي تمرح تحتها أسماك لم يصطدها أحدٌ بعد، وقد امتلأ قلبه حزناً، بسبب إجازته التي كاد الاستمتاع بها أن يضيع، وقال: «ثمّ...».

ولكن لسانه انعقد مرة أخرى من فرط الإثارة التي تملّكته. خبط الصيّاد على ظهره كطفل وقفت لقمة في حلقه، ثم سأله بصوت خافت: «ثم ماذا؟».

فأجاب الأجنبيّ بحماس هادئ: «ثم.. ثم، عندئذٍ تستطيع الجلوس باطمئنان هنا في الميناء، وتغفو تحت أشعة الشمس، وتتأمل في البحر الرائع».

فأجابه الصيّاد: «ولكن هذا ما أفعله الآن. كنت أجلس مطمئناً في الميناء وأغفو، ولم يزعجني إلا صوت آلة تصويرك».

وانصرف ذلك السائح المتعالم من عند الصيّاد وهو غارقٌ في تفكيرٍ عميق، فقد اعتقد هو أيضاً ذات يوم أنه يعمل ليجيء اليوم الذي يجب عليه ألّا يعمل بعده. ولم يبقَ في قلبه أيّ أثرٍ من الإشفاق على هذا الصيّاد رثّ الثياب، وإنما بعض الحسد.

هاينريش بُل (1917-1985)

وُلد في مدينة كولونيا بألمانيا لعائلة مسالمة عارضت صعود النازية. رفض «بُل» الانضمام إلى «شباب هتلر» خلال فترة الثلاثينيات، لكنه جُنّد في الجيش خلال الحرب العالمية الثانية، وقد تركت هذه التجربة أثرها على أدبه، ولذلك فهو يعدّ واحداً من أبرز ممثّلي التيار الأدبي الجديد الذي ظهر بعد انتهاء الحرب، هذا التيار الذي عبّر عن تجربة الحرب، وعن فترة النازية والطغيان، وكان يطمح إلى تخليص اللغة الألمانية من رطانة هتلر وأعوانه.

في سنوات الستينيّات انشغل «بُل» بتصوير أحوال المجتمع في فترة ما سُمِّي بـ«المعجزة الاقتصادية»، منتقداً التحوّلات التي شهدها المجتمع الاستهلاكي الجديد. لقيت أعماله صدىً كبيراً حين صدورها، وأثارت النقاشات والجدل.

حاز « هاينريش بُل» على جائزة نوبل في الآداب في عام 1972، «لإبداعاته التي جدّدت الأدب الألماني وأَثْرته». وفي أعقاب فوزه هذا، تُرجم عددٌ كبير من أعماله إلى لغاتٍ عدّة، وبضمنها اللغة العربيّة، ومن أبرز هذه الأعمال: «آراء مهرّج»، «صورة جماعيّة مع سيّدة»، «شرف كاتارينا بلوم الضائع - أو: كيف ينشأ العنف وإلى أين يؤدّي»، «نساء أمام طبيعة نهرية»، «الملاك الصامت»، «نهاية مأمورية».

سمير جريس:

درس سمير جريس الألمانية وآدابها في القاهرة وماينتس بألمانيا، وترجم عن الألمانية نحو ثلاثين عملاً من الأعمال الأدبية الحديثة، منها: «عازفة البيانو» لإلفريده يلينك (نوبل 2004)، و«العطل» لفريدريش دورنمات، و«حلم» لأرتور شنيتسلر. حصل على جوائز عربية وألمانية تقديراً لترجماته.

صدرت بترجمته لدى دارَيْ «سرد للنشر» و«ممدوح عدوان للنشر والتوزيع»: «صداقة مع ابن شقيق فيتغنشتاين» لتوماس برنهارد، «مدرسة المستبدّين» للكاتب إريش كستنر، «سن الأسد» لفولفغانغ بورشرت، «دون جوان يحكي عن نفسه» للكاتب النمساوي بيتر هاندكه (نوبل 2019)، و«شتيلر» لماكس فريش.

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

1. الغلاف
2. وكان مساء...
3. على سبيل التقديم
4. ساقي الغالية
5. عند الجسر
6. وداع
7. أيها الجوّال، إذا وصلت أسبـ...
8. قم.. قم وانهض!
9. الشغل شغل
10. خالي فْريد
11. ميزان آل باليك
12. الضاحك
13. موت إلزه باسكولايت
14. البطاقة البريدية
15. هنا تيبتن
16. وكان مساء.. وكان صباح
17. كما يحدث في الروايات السيّئة
18. سيحدث شيء
19. حكاية عن هبوط أخلاقيات العمل
20. هاينريش بُل (1917-1985)

مملكة هذا العالم

كاربنتييه, آلخِو

9789933641108
pages 136

(Buy now and read (Advertising

بعد هرب "ماكندال" ومطاردته، يستفيد من القدرات العجيبة التي زُوّد بها، فيتخذ مظهر حيوانات مختلفة، منتفعاً بموهبته في الانتقال فوراً من مكانٍ إلى آخر، وبسبب إيمان معاصريه به فإنه يشجّع بهذا السحر على أكثر الانتفاضات درامية وغرابة في التاريخ. بقي من "ماكندال" ميثولوجيا كاملة تصاحبها أناشيد سحرية يحفظها الشعب كله، وما تزال تنشد في احتفالات ديانة "الفودو". وفي هذه الرواية يستلهم "آلخو كاربانتييه" من هذه الميثولوجيا سلسلة من الوقائع فائقة الغرابة حدثت في هاييتي، في عصر محدّد لا يبلغ مدى حياة بشرية قصيرة، فيقدّمها من خلال شخصية "تي نويل"، الذي يدرك أخيراً كيف يمكن للإنسان أن يجد عظَمته ومداه الأقصى في مملكة هذا العالم.

(Buy now and read (Advertising

نوبل للآداب
1972

هاينريش بُل

وكان مساء ...

ترجمة وتقديم
سمير جريس

سرد

مكتبة
Telegram Network